تقارير هاربة

تقارير هاربة

مصطفى الأنصاري

العبيكان
Obeikan

ⓒ مكتبة العبيكان، ١٤٢٨هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الأنصاري، مصطفى محمد

تقارير هاربة (اجتماعية، فكرية، سياسية)./ مصطفى محمد الأنصاري. - الرياض، ١٤٢٨هـ

٢٣٨ص؛ ١٤ × ٢١سم

ردمك: ١-٢٠٤-٥٤-٩٩٦٠

١- المقالات العربية - السعودية أ- العنوان

ديوي ٠٨١ ٧٨٦ /١٤٢٨

رقم الإيداع: ٧٨٦ /١٤٢٨

ردمك: ١-٢٠٤-٥٤-٩٩٦٠

الطبعة الأولى

١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م

حقوق الطباعة محفوظة للناشر

الناشر

شركة العبيكان للأبحاث والتطوير

الرياض - شارع العليا العام - جنوب برج المملكة

هاتف ٢٩٣٧٥٧٤ /٢٩٣٧٥٨١ فاكس ٢٩٣٧٥٨٨

ص. ب ٦٧٦٢٢ الرمـــز ١١٥١٧

امتياز التوزيع

شركة مكتبة العبيكان

الرياض - العليا - تقاطع طريق الملك فهد مع العروبة

هاتف ٤١٦٠٠١٨ /٤٦٥٤٤٢٤ فاكس ٤٦٥٠١٢٩

ص. ب ٦٢٨٠٧ الرمـــز ١١٥٩٥

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو نقله في أي شكل أو واسطة، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك التصوير بالنسخ «فوتوكوبي»، أو التسجيل، أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطي من الناشر.

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

صحيفتي العزيزة / الحياة

هذا يسير من فيض عطائك الغزير

إذ فيك تلقينا دعماً تجاوز طموحاتنا

وتقديراً مادياً ومعنوياً، أشعل نيران مواهبنا

ومنك وجدنا جرأة ومهنية، بزّت شجاعتنا وإمكاناتنا

إهداء إليك، وإلى حراسك الكرام

وإلى كل الذين علمونا بالقلم

المحتويات

الموضوع	الصفحة
مقدمة جميل الذيابي (مدير عام تحرير الحياة)	13
تبرير الهروب	15
باب ما جاء في الهروب	18
تقارير اجتماعية	23
الهروب إلى "الحب" والعراق	25
بورصة المطلقات	34
تقنية الطلاق	37
الخيانة بنية الطلاق	43
التكافؤ ليس شرطاً	49
زوجة وساحرة!	54
الفقر يتهدد العفة	59
الفساد عدوّ الضمان الاجتماعي	67
نهاية غرام	73
عبث الصورة بالجسد الجميل	78
العنوسة بين الدعاة	81
الجوال بديلاً عن الرجل في ثرثرة النساء	87

الموضوع	الصفحة

الشقراء والورقة الزرقاء	93
تقارير فكرية	99
إعادة كتابة التاريخ ضرورة أم سفه؟	101
هل التاريخ السعودي يحتاج إلى إعادة قراءة؟	108
جاهلية الأواج	120
حيْونة السياحة	126
وسائل للنصب والشفاء معاً	132
التدين التايواني	137
بيعة رضوان جديدة	143
أم القضايا: سد الذرائع	148
الجنس المجنَّد	154
الخطاب النسائي مهدد بالسطحية وسلطة الذكور	160
"أزهر سعودي" يتجه نحو التحديث	167
الخوف من التيسير	173
تقارير شبه سياسية	177
إمارة "الويب"	179
الحملات الصليبية في ثوب عصري	187
حل الطائفية بالطائفية؟	192

الموضوع	الصفحة
شبح واشنطن يطارد أبرياء في وطنهم	197
الجلد في المحاكم ... إلى أين؟	205
الأفكار الإرهابية لا تتحول بالمواعظ	211
دراسة: الأمركة والعلمنة حول فاشلة	220
مؤسسة الحرمين ... الإقلاع حتى السقوط	227

صاحب مهنية ومبدأ!

قلت له ذات مرة: "سنناضل بأخبارنا ونكتب... ونكتب، حتى تتزف الأحبار وتجف الأقلام". زميل صحافي من نوع مختلف، لا يهدأ ولا ينام طالما يشم رائحة خبر جديد أو معلومة تائهة. ينحت في الحروف الخبرية كما تحفر "الكسارة" في الصخر، ويخترق الكلمات لتبدو وكأنها لكمات. صديق من نوع مختلف يمتلك الصلابة ولا يخفض رأسه، يتأبط محبرته وورقته ليستمطر الأخبار ويخوض المعارك في سواد الليل وبياض النهار.

زميل مهني من الطراز الأول، وذو رؤية مهنية ومبادئ إنسانية لا يتنازل عنها عندما يكتب مادته الصحافية.

هو الزميل الإعلامي مصطفى الأنصاري الذي جمعتني معه صحيفة "الحياة"، فتحسست فيه منذ الوهلة الأولى الموهبة والإرادة والروح العالية المدعومة بالسعي اليومي المتواصل وراء الجديد المختلف. مصطفى شاب يصمت كثيراً ويتحدث قليلاً، لكنه يشتم رائحة الخبر من بعيد، ويتنفس هواء المهنة في نومه وقبل هجوعه.

أوقات كثيرة أقول في داخلي إنه صحافي "عصامي"، وأحياناً أخرى أقول إنه "صحافي مغامر" لا تنتهي مفاجآته، هذا إلى جانب تميزه بالكلمة المحبوكة والصياغة المتينة الرصينة التي تجذب

القارئ، والمحتوى العميق الجامع المانع الذي يستفزك، وفي الوقت نفسه يجبرك على احتسائه.

وكتاب "تقارير هاربة"، حزمة من المواقف والمشاهد والرؤى من واقع الحال الاجتماعي والثقافي والإنساني، التي أظن القارئ سيجد فيها مائدة خضراء يأكل من أولها وأوسطها وآخرها، ويقول: هل من مزيد؟

ليس من السهل أن تصدر أو تؤلف كتاباً يزين المكتبات العامة ويكون إضافة حقيقية لها، ثم ينافس الكتب التي تملأ أرففها، وليس من السهل أن تختار الموضوع والقضايا التي يمكن أن تكتب حولها وعنها، إن لم تكن مطلعاً على الواقع تتابعه يومياً بعين فاحصة دقيقة، كالتي يرصد بها (أبو نهى) تقاريره، مجردة من مسببات أمراض النظر الكثيرة والمنتشرة.

لهذا فإن كتابه جدير بالقراءة، كما يستحق المحاكمة والنقد، لأن مؤلفه صحافي محترف، صاحب مبدأ ومهنة، لذلك فإن كلماته حرة وجادة.

أعلم أن شهادتي في زميلي وأخي "مجروحة"، لكنني أترك الحكم لكم معشر القراء، فلا أظنكم تقرؤون كتابه الذي بين أيديكم، حتى تعذروني في إطرائه، لذا لا نملك سوى مؤازرة الأخ العزيز مصطفى لبذل المزيد من الجهد في حضرة صاحبة الجلالة.

جميل الذيابي

المدير العام لتحرير صحيفة "الحياة" في السعودية والخليج

تبرير الهروب

قضى الله عز وجل على الكون جميعه بالفناء، لكنه فطر مخلوقه الأكرم الإنسان على الصراع من أجل البقاء، والتفاني في محاولة الخلود. واختلفت طرائق الناس في سبيل ذلك قدداً، فمنهم من يعد النسل أنجع ما يحقق تلك الغاية، ومنهم من يسعى لها بمال يكسبه، أو علم غزير يورِّثه، واصطفى الله مكرمين، جمع لهم بين موجبات الخلود كافة.

ولمكانة الخلود عبر الحقب والقرون، امتن الله على نبيه بأن رفع ذكره، وجعله متردداً من العرش في السموات العلا، إلى أنحاء البسيطة التي كلف الإنسان بمهمة عمارتها، وعلى نبييه نوح وإبراهيم بأن جعل في ذريتهما النبوة والكتاب، وهي خصوصية وإن كانت في الآخرة أعلى مقاماً وأحسن نديا، إلا أنها أيضاً في الأولى شرف وذكر، إليه المنتهى.

إذا كان الأمر كذلك، فإنه لا تثريب على التقارير إن هي فرّت من قدر "الفناء" والانتحار إلى قدر "البقاء"، سيراً على نهج المصطفين الأخيار وبقية الأجداد ممن دافعوا مناياهم بما ملكت

أيديهم، بل إنهم أسرعوا نحو الموت في مواطن، لما استيقنوا أنه أفضل وسيلة للحياة والخلود.

أما قيمة المحتوى فإن ظن كاتب التقارير، أن القارئ سيجد فيها بعضاً مما يفيده، فهي ليست آراء شخصية له، ولا اجتهادات فردية، بل هي أفكار ومعلومات تعود إلى أكثر من ٣٠٠ مصدر، أوتي علماً اجتماعياً أو فكرياً أو سياسياً، يقتصر دور كاتبها في إعدادها وصياغتها في لغة صحافية مهنية، لا تضاهي مفردات طرفة بن العبد في مثل قوله: (سفنجة تبري لأزعر أربد)، ولا أحاجي بعض الروايات الرائجة، ولا لغة فتيان (الشات)، الذين يكتبون ما يشتهون، ولكن التقارير تبتغي بين ذلك سبيلاً. قارئها سيجد فيها رأي المسؤول والمثقف والمفكر والمهني والإنسان العادي، رجالاً ونساءً.

التقارير التي هربت من الفناء، بعد أن انقضت أوطار الصحف منها، لا تمثل وجهة نظر المحرر بالضرورة، سواء في مضمونها أو في اختيارها للنشر على هيئة كتاب، ففي أثناء إعدادها ابتداءً، جاءت مواكبة لحدث معين، يتطلب العمل المهني معالجته من زاوية معينة، ولما جاء الوقت لترشيح نماذج لنشرها في غلاف موحد، حاول كاتبها تقمص شخصية معظم شرائح القراء، ليختار المناسب بالنيابة عنهم. وبعد ذلك عرض على زملاء آخرين ما انتخب، وانتهوا إلى الذي بين أيديكم الآن.

ثم إن فكرة جمع هذه التقارير في غلاف واحد، حفز عليها أول الأمر، ملاحظة عدد من الزملاء أن ما ينقل منها على "الإنترنت" بعد نشره في الصحيفة، يلقى تفاعلاً كبيراً من القراء.

وقد علق على إحدى هذه التقارير لما نشرت في موقع "العربية نت" نحو ٢٧٠ شخصاً، من أصل ٤٠٠ ألف قارئ في حدود ٢٤ ساعة فقط! عندئذٍ أدركت أن صلاحية هذه التقارير لا يجوز أن تنتهي بنشرها في صحيفة سيارة مهما بلغ قراؤها كثرة.

وفي العرف الصحافي، تكتسب المادة أعلى مقامتها، "حينما تجمع بين متانة المعلومة، والصياغة المحترفة والمضمون الشائق". وهو المعيار الذي اتخذه المحرر للاختيار، فهل وفق؟

والمنة لله أولاً وآخراً، ثم للصحف التي مكنت المحرر من التدرب فيها والكتابة لها، ولدار العبيكان التي أعطت التقارير حق اللجوء الفكري في بلاطها، واحتضنتها بعد تهديدات الفناء لها بين ركام الدواليب، وشرائح أجهزة الكمبيوتر. ومع ذلك سيبقى جهد كل أولئك هباءً منثوراً إن لم يحظ العمل باهتمام القارئ، الذي يكرم الكاتب والناشر معاً، أو يُهين.

مصطفى الأنصاري

"محرر صحافي"

amustfa@hotmail.com

باب ما جاء في "الهروب"

الثقافة العربية بمجموعها الكلي، على قدر كبير من الغنى والسعة، يجعل الباحث عن أي شيء - غالباً - يحصل له على شاهد منها، ومن ذلك مفردة الهروب، التي أراد المحرر أن ينطلق منها إلى آفاق تقاريره الهاربة من الفناء وغبرة النسيان والجحود.

ولكثرة ما يرد في الهروب ومعانيه كـ"الفرار، والتولي"، لا يدري المنقب ما يأخذ من ذلك وما يدع، ففي التنزيل - مثلاً - نجد ربنا عز وجل، يحكي عن سيدنا موسى عليه السلام أنه لما ألقى بعصاه واستحالت ثعباناً عظيماً ﴿**ولى مدبراً ولم يعقب**﴾، أي لم يلتفت من شدة فرقه(*). أي خوفه، وهو كناية عن الهروب الشديد، الذي حين يبصره المرء وهو في أمان، لا يملك إلا أن يستغرق ضاحكاً من المشهد، لكن المولى الذي ألقى على موسى محبة منه، طمأنه بأن ﴿**أقبل ولا تخف إنك من الآمنين**﴾، كما فعل بأمه من قبل عندما ألقته في اليمّ، وأصبح فؤادها فارغاً، حناناً وخوفاً على وليدها، حتى كادت أن تفشي وتبدي سرّ الحكمة الربانية، لولا أن السنن الإلهية، ليست كخطط بوش في العراق، ولا خطط التنمية

(*) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ص٣٦٢.

العـربيـة، إذ لم تتحـمل أن ترى ضناها بين الناس تتقـاذفه الأيادي النظيفة والقذرة، بعد أن استحال (لقطة) يتردد صداها بين الناس، فلم يلبث أن انتهى النبي الصبي إليها، لتقر به عيناً ولتعلم أن وعد الله حق.

وكان النبي الجليل قبل توليه مدبراً، خوفاً من الثعبان المرعب، كـان له هروب آخـر، سـمـاه القـرآن خـروجـاً، عندمـا وكـز الـرجل المشـاغب، فنُصح بـالخـروج من مـصـر، ليلقى الرجل الصـالـح في مدين، والذي اتخذه أجيراً عشر حجج، مقابل أن ينكحه فتاته التي شهدت ابتداءً بأمانة النبي الكليم وقوته، عندمـا سقى لها نَعـمها على البـئـر فـعـرضت على والدها اسـتـئـجـاره، فكانت هي الأجـر، وهاهنـا سـؤال: هل بقـيت فـتـاة في الكون تسـتـحق أن يرعى فـتى الشـيـاه ١٠ أعـوام، مـهـراً لهـا؟ وهل في كل الأجنـاس البـشـــرية الراهنة، صـادق في وفـائه كـمـوسـى؟ المثيـر أن الوعـاظ من النسـاء والرجال معاً جعلوا من يوسف -عليه السلام- وحده أسطورة للعفة، ولم يطـروا نبـيـاً أجلّ وأعفَّ، هو مـوسى كليم الله، فـإن كـان يوسف عفّ عن الحرام المتاح بعد أن همّ به، فإن موسى كان أعلى كعباً في طلب العـفـاف والإخـلاص والتضـحـيـة في ســبيل فتـاة مـدين التي أحبته.

ومن أطرف قصص الهروب والفرار، مـا يروى عن الأعراب في هذا الشـأن، وهو في كتب الأدب كثيـر جداً، وربما وُجدت له نظائر

في العصر الحديث، ومن ذلك ما عايشه المحرر شخصياً يوليو ٢٠٠٦، في مدينة كانوا النيجيرية، إذ أشار مضيفه موسى بن حامحاما إلى جارية سمراء في ناحية من البيت، قال إن فتى مثيراً تزوجها، وأخذها من بيت أسرتها إلى منزله في أحد أحياء المدينة التي يتجاوز سكانها ١٠ ملايين نسمة، وقبيل طلوع الشمس في اليوم التالي، أتى الزوج يشتكي حالة الفتاة إلى أهلها، قبل أن يخبرهم بأنها فرت هاربة منه! وحاول أن يذكر بعض الأسباب التي دفعتها إلى ذلك وإن اعتقد أنها غير منطقية، لكن موسى أكد أن السبب الحقيقي هو الخوف من بطش الفتى المتعافي جنسياً.

وهي حالة لها سلف، كما نقل ابن القيم في كتابه روضة المحبين، أن الخرائطي قال: "حدثنا عمارة بن وثيمة قال: حدثني أبي قال: كان عبدالله بن ربيعة من خيار قريش صلاحا وعفة، وكان ذكره لا يرقد، فلم يكن يشهد لقريش خيرا ولا شرا، وكان يتزوج المرأة فلا تمكث معه إلا أياما حتى تهرب إلى أهلها، فقالت زينب بنت عمر بن أبي سلمة: مالهن يهربن من ابن عمهن؟ قيل لها: إنهن لا يطقنه، قالت: فما يمنعه مني فأنا والله العظيمة الخلق الكبيرة العجز؟ قال فتزوجها فصبرت عليه وولدت له ستة من الولد"(*).

وهناك جوانب أخرى من الهروب الاجتماعي والسياسي، اشتهرت في الأول قصص الفتيات الهاربات من أسرهن،

(*) روضة المحبين، ص٢١٤.

والخادمات إلى جهات غير معروفة، وفي الثاني، هروب المعارضين السياسيين من أوطانهم. وبين أنواع الهروب بون شاسع مثل الذي بين الهاربين. ويبقى الملجأ دوما إلى الله، الذي وجه عباده بأن يفروا إليه(*).

(*) إشارة إلى الآية الكريمة من سورة الذاريات ﴿**ففروا إلى الله إني لكم منه نذير مبين**﴾ آية رقم ٥٠.

تقارير اجتماعية

الهروب إلى الحب والعراق

بورصة المطلقات

تقنية الطلاق

خيانة بنية الطلاق

التكافؤ ليس شرطاً

زوجة وساحرة

الفقر يتهدد العفة

الفساد عدو الضمان الاجتماعي

نهاية غرام

عبث الصورة بالجسد الجميل

العنوسة بين الدعاة

الجوال بديلاً عن الرجل في ثرثرة النساء

الشقراء والورقة الزرقاء

الهروب إلى "الحب" والعراق

يجمع بين الهاربين في السعودية من الفتيان والفتيات قواسم مشتركة عدة، كما يلتقي أهلهم عند نقاط كثيرة، بيد أن لكل هارب قصة ولكل قصة مغزى. هناك هاربون ذكور أو إناث من العدالة، وآخرون من الظلم والقسوة والجفاء الأسري. القواسم المشتركة بين الهاربين أبرزها "الاختفاء" وبين أهليهم "القلق والفزع" من المصير المجهول لابنهم أو ابنتهم.

لكن غزو أميركا لأفغانستان سابقا وللعراق أخيراً، والأحداث الإرهابية في السعودية خلال السنين الماضية والقوائم التي أُعلنت مراراً، جعلت هروب الفتيان أخطر، فما من عائلة اختفى عنها ابنها مهما كان مثالاً للاستقامة والاعتدال يومين أو ثلاثة إلا وتضع ضمن الفرضيات السيئة احتمال أن يكون "ذهب إلى العراق" أو "اختفى مع خلية إرهابية".

وشهدت الصحف السعودية في المدة الماضية إعلانات متقطعة عن مفقودين تحولت أعداد منهم إلى قنابل في السعودية أو خارجها، عدا آخرين كان هربوا لأسباب غير إيدلوجية.

ويقول الناشط السعودي ماجد المرسال لـ "الحياة": "هروب الشبان السعوديين من أسرهم يعد واحداً من الأسباب المفضية إلى الإرهاب والسفر إلى أفغانستان أو إلى العراق، وتبدأ أولى حلقات الهروب عندما يشعر أحد الشبان الصغار أن (التزامه الديني) يستدعي أن يجري تغييراً شاملاً على حياة أسرته، فإذا كانت لديها تلفزيون فإنه يحاول إبعاده عن المنزل، وإذا كان منهم من لديه بعض التقصير في السنن فإنه يحاول إجباره على الالتزام بها"!

"وفي مثل هذه الحالات" يقول المرسال: "يلجأ الشاب إلى الهروب من أسرته إلى خلية تتفق معه في التفكير، وهناك يتأثر بالأفكار المتداولة بين عناصر الخلية إن كانت تكفيراً أو دعوة إلى الجهاد في العراق أو في أي مكان ...إلخ".

ومع أن المرسال ينشط في مجالات دعوية محضة إلا أنه كشف أن آباء يشتكون إليه واقع أبنائهم، عندما يتحولون من أشخاص عاديين إلى "متشددين" في الدين.

الهروب هو الحل!

"أحدهم أتاني يبكي بكاء مرّاً أفجعني. قضيته أن ابنه الجديد على الدين قال له: إما أن تسلمني ولاية الأسرة (أمه إخوانه وأخواته) وإما أن أهجر البيت تماماً. نصحت الأب بتمكين الولد من السيطرة لينظر ماذا سيفعل".

كان أول قرار أصدره المتدين الجديد - والكلام للمرسال- "منع البنات من الدراسة، وفرض الالتحاق بمدارس تحفيظ القرآن على إخوانه. غير اسمه الذي سماه به والده لاعتقاده أنه يحمل محظوراً شرعياً مع أنه كان عادياً. تدخل الوالد وأنهى مسلسل الرعب في المنزل وفتش جهاز ابنه فوجد فيه كتبا ومنشورات تحرم الدراسة وتدعو للجهاد وتتعاطف مع المخربين. لم يكن أمام مثل هذا إلا الهروب"!

وبدوره يجزم المرسال أن "الذهاب إلى العراق" بوصفه ميداناً للهروب من جانب الشباب الأكثر خطورة في الوقت الحالي "لا يتورط فيه شاب يعيش حياة طبيعية مع أسرته، وأتحدى أحداً يثبت عكس ذلك".

تلقى اتصال الهروب وينتظر التالي!

أما رب أسرة يدعى (أحمد) في أحد أحياء مدينة الرياض، فلم يزل متأثراً بالنهاية التي ألقاها ابنه إلى مسامعه واختفى من ورائها، ووصف معاناته لـ "الحياة" قائلا: "ابني عاش مع منظومة متكاملة من إخوان وأخوات ووالدين يعتزان به. لا تبدو عليه أي أمارات الانحراف، فهو وديع بطبعه. لم يشارك في أي تجمع مشبوه في ما نعلم. في منتصف رمضان زعم أنه خارج مع أصحابه إلى الديار المقدسة. هل يسعنا إلا أن ندعو له بالقبول وأن لا ينسانا من صالح دعائه؟ لكنه لم يعد إلا صوته الذي انبعث من الأسلاك

ليهتف قائلاً: "أنا في العراق". ومع أن أمل نجاته في الله وحده إلا أنني أنتظر اتصالاً آخر في أي لحظة يقول: "قتل". إنه يعلم أنني ووالدته رافضين لذهابه كلياً. حتماً الهروب حله الوحيد"!

يرجعن بأجنة في البطون!

وفي جانب الفتيات الهاربات لم تكن النهاية مختلفة كثيراً، بل لو سئل ولي أمر فتاة انتهت إلى السجن في قضية أخلاقية عما سيختار: أن تموت ابنته أو تلبس ثوب العار لما تردد في تفضيل الأول.

قصص الفتيات الهاربات من أسرهن إلى (المجهول) التي يتداولها السعوديون كثيرة، وإن كانت في معظمها تتقاطع عند "بوابة السجن" أو رجل "الهيئة" الذي يعرف نفسه بالمنقذ لـ "الفتاة" من الذئاب البشرية.

ومن بين الحوادث التي انتهت بهروب "فتاة" من أسرتها قصة (نجاح) – وهو اسم مستعار بالطبع – التي تقبع خلف أسوار سجن النساء بالرياض.

في المرحلة الثانوية هربت مع عشيقها الذي تعرفت عليه عن طريق الهاتف، وتطورت علاقتها معه حتى أقنعها بأن تخرج معه فاستجابت في ساعة ضعف أمام إلحاحه، لكنه لم يراع براءتها وهوى بقداسة حبها له إلى مكان سحيق مع شرفها الذي انتزعه منها انتزاعاً، بعد رفض والده المتكرر لخطبة العشيق، الذي برر (الأب) رفضه بأنه لا يصلي وسمعته سيئة في الحي الذي يسكنه.

مضت الأيام واللقاءات تتابع بين العاشقين، حتى أوقفهما "رجال الحسبة" في مساء لم يكونا به مسرورين، تم القبض عليهما في خلوة غير شرعية، اتضح بعدها أن الفتاة كانت هاربة من والدها منذ شهرين!

استدعي والد الفتاة الذي بلغ عن هروبها - كما يحكي عبدالعزيز الجميعة - الموجه في سجن النساء بالرياض، ويطلب منه تسليم ابنته فإذا بها حامل من عشيقها! طلب من الجميعة مقابلة تلك الفتاة لخوفها الشديد من والدها بعد أن علمت أنها حامل من ذلك الشاب. قابلها وهدأ من روعها ووعدها بأن يقابل والدها ويتباحث معه في هذا الموضوع ومن الغد حضر والد الفتاة بعد أن أبلغ بالعثور على ابنته.

جاء الأب ودموع الخوف تملأ وجنتيه مطأطئاً رأسه يخشى أن يراه أحد يعرفه. ذُكر بأن البنت أمانة في عنقه، والواجب عليه الآن أن يفكر في كيفية تجاوز هذه المصيبة والوقوف مع ابنته في هذه المرحلة الخطيرة خشية أن تصل إلى طريق مسدود.

لحظات الدموع والنظرات الحانية

يقول الجميعة كما نقلت صحيفة محلية: "طلبت من الوالد أن يقابل ابنته ويتحدث معها فحالتها النفسية منهارة جداً، فسبحان الله كم كان قلب الأب كبيراً، وكم كان قلب الأب رحيماً. نسي ألمه وأحزانه وقال: وهل سأستحمل أن أراها بهذه الحالة؟ قلت له:

اصبر وما صبرك إلا بالله، سيعينك الله وادعُ الله أن يقويك. تمت المقابلة فأخذت الفتاة تقبل يد والدها وهي تبكي وبحرقة والأب ينظر إليها بشفقة ورحمة، يتخيل كيف سيكون مستقبل تلك البنت يتخيل ذلك الجنين ما مصيره وما مصير ابنته وماذا سيقول لإخوانها وأخواتها والناس، وأين سيذهب بها بعد خروجها؟ وهل سيكون هذا الطفل معها؟ أسئلة كثيرة جداً تدور في رأس هذا الأب المسكين المشفق. بقيت هذه الفتاة حتى أنجبت ثم خرجت هي إلى بيت أبيها والطفلة إلى دار حضانة الأطفال. تلك هي نتيجة العلاقات المحرمة، هذه نتيجة الثقة بالشباب الذين يتبرأون من ضحيتهم"!

الهروب ... يعني البحث عن بديل!

في معظم الحالات يعيد علماء الاجتماع والنفس أسباب انحراف الأبناء فكرياً إلى " "غياب لغة الحوار بين عدد من الأسر وبين أبنائها البالغين" كما ترى أستاذ الاجتماع في جامعة الملك سعود الدكتورة آمال عبد الرحيم، "الأمر الذي يترتب عليه غالباً انفصام عرى التفاهم بين البيت والشاب، ما يدفع بأعداد من المراهقين إلى البحث عن بدائل تعوضهم عما افتقدوه بين أسرهم، ولذلك فإن غياب الحوار يشكل خطراً كبيراً على الأسرة".

ويعيد المختصون في علم الاجتماع – حسب عبد الرحيم نفسها – نفور بعض المراهقين من ظلال أسرهم " في المقام الأول إلى مرورهم بمرحلة ما قبل النضج العاطفي ما بين الطفولة

والرشد، ويقع دور كبير على الآباء في تفهم ظروف مرحلة المراهقة بوصفها بالغة الحساسية، كونها مرحلة يسهل فيها انحراف الناشئ الذي لم يزل متقوقعا بين النضج والطفولة".

وتضيف: "في كل جانب يفترض أن الأسرة هي الصدر الحنون الذي يمتص تقلبات المراهق. إنه إذا لم يجد من يفسر له ماذا يحدث معه سواء على صعيد التغيرات العضوية أو النفسية ولم يجد من يستوعبه، في ظل ظروف قاهرة مثل الطلاق بين الوالدين أو اختلافهما وعدم الشعور بالإشباع العاطفي، لا بد أن يوجد البديل خارج إطار الأسرة وهنا تكون المشكلة. هنا يقع في مأزق تأثره بأقرانه، في حين أن المفترض أن تكون الأسرة هي المصدر الأول للحنان والعاطفة، والمنبع الذي يستقي منه الابن والمراهق باستمرار".

ختام "غير مسك" للهروب!

رئيس مركز مكافحة الجريمة في وزارة الداخلية سابقاً الدكتور عبد الله اليوسف رغم إقراره بأن الهروب الذي وصفه بـ"الخروج عن النسق الأسري" يمثل مشكلة إلا أنه عاد واعتبر هروب الفتيات "ظاهرة ليست بالحجم الكبير" من واقع المعلومات والدراسات التي لدى المركز. لكنه يرى الهروب إجمالاً " أحد المؤشرات التي قد تؤدي إلى الانحراف، وأحيانا أحد الطرق المؤدية حتما إلى الانحراف".

ومن جانبه اعتبر عضو مجلس الشورى السعودي الدكتور خليل الخليل "الاختفاء عن أنظار المجتمع – ممن كان – ينبئ عن إشكالية من الإشكاليات التي يعاني منها المختفي أو قضية يريد أن يحققها"، وعده "ضوءاً أحمر يستدعي الحذر والانتباه والتوجس، لأن النتائج لهذا الاختفاء غير مألوفة وغير معلومة، في مجتمع مثل السعودية لأنه مجتمع متواصل ومترابط"

وقال لـ "الحياة": "ملاحظ أن كثيرا من الإرهابيين الذين أصبحوا خطرا على مجتمعهم ودولهم استخدموا هذا التكتيك: التخفي عن أنظار قوى الأمن والسلطة. الإنسان السوي واضح في سلوكه، وله منزل يأوي إليه وأسرة يرتبط بها، وله عمل يعمل فيه. إذاً ترك قنوات المجتمع مؤشر على وجود إشكالية، لذلك من المفيد للعوائل عندما يختفي أحد أفرادها المبادرة بالبحث عنه، والاستفادة من القنوات المتاحة من الأصدقاء والحكومة للبحث عنه".

وبرر ذلك بأن "وقوع هذا الإنسان في قبضة رجال الأمن أفضل له من أن يتمكن من تحقيق الأهداف التي اختفى من أجلها، فدوافع الهروب في الواقع الموجود ليست اجتماعية بل هي أيدلوجية وفق تكتيك مدروس لإيهام المجتمع والسلطة، وبعد الأحداث التي ذاق وبالها المجتمع لن نصدق كثيراً من الأسباب التي تقال هنا وهناك. ثمة مشكلة يجب أن نواجهها وهي التشدد والهروب باسم الاسلام. هذا النوع من الهروب غير مسبوق في مجتمعنا، وبالتالي فهو ضوء أحمر، علينا أن نأخذه بجدية".

وحذر من الهروب الاجتماعي المحض أيضا ورأى التنبه له واجباً "فربما استخدمت بعض الفتيات الهاربات اجتماعيا في العمليات الإرهابية".

ويرى مدير إدارة العلاقات والتوجيه في وزارة الداخلية الدكتور سعود المصيبيح أن الهروب على الرغم من خطورته "إلا أنه ليس بالضرورة أن ينتهي إلى الإرهاب، وهروب الفتيات في الواقع الاجتماعي السعودي خطير، لكنه لا يشكل حتى الآن ظاهرة تهدد تماسك الأسرة واستقرار الوطن".

"بورصة" المطلقات

أخذت عدوى البحث عن زوجة ثانية تحت عباءة زواج "المسيار" أو الظرف أو المرض تنتشر في المدن والمحافظات السعودية، خصوصا تلك التي تشهد نهضة اقتصادية لافتة مثل الرياض وجدة ومكة والمدينة.

وفي الرياض التي تضم شبكات إلكترونية وبشرية للباحثين عن الأنثى الثانية حتى الرابعة، شبّه خطّابون وخطابات الحالة بـ "الإنفلونزا" في سرعة انتشارها وكثرة الموبوئين بها في فصل الشتاء.

وزعم أحد أشهر الخطابين في الرياض الفنان سليمان الوابلي الذي يفاخر بإشرافه على شبكة تضم نحو ١٤٥ امرأة أن " قرابة نصف سكان الرياض يرغبون الزواج من امرأة ثانية مسياراً"، لكنه لم يُعد ذلك إلى الطفرة الاقتصادية وحدها بل "إلى إهمال الزوجات والبحث عن المتعة الحلال من دون الحاجة إلى السفر للخارج".

ولذلك فإنه نصح الزوجات اللاتي يرغبن في الإبقاء على قلوب أزواجهن خالصة لهن "أن يكن أشبه بعارضات الأزياء في بيوتهن".

أما المشرف على موقع "زوجتي" الإلكتروني الذي يضم ٢٣٨٥٩٩ رجلاً وامرأة، معظمهم من الرجال الباحثين عن زوجة ثانية عبد الله الجوهر، فعلق على سؤال "الحياة" ضاحكاً: "غالبية الرجال إن لم يكونوا كلهم يرغبون الزواج بثانية، وأنا واحد منهم، لكن الإقبال من النساء على التعدد بات ضئيلاً جداً، وقليل منهن اليوم من ترضى بالمسيار الذي أصبح سيئ السمعة اجتماعياً".

لكن الخاطبة أم نواف وسط الرياض تنظر للموضوع من زاوية أخرى، إذ تعتقد أن بحث الرجل عن الأنثى أمر طبيعي وبدهي ورغبة المرأة في الرجل والمال معاً أيضا غير مستغرب.

وحول العروض المتوفرة لديها وعما إن كانت تجد صعوبة في تلبية طلب عملائها من الرجال الباحثين عن المسيار تقول: "ليس صحيحاً أن الرجال وحدهم من يبحث عن المسيار، فهناك نساء أيضا لا يناسبهن غيره، إلا أن عدداً منهن يحاولن استغلال ظروف الرجال في تحقيق الكسب المادي إلى جانب الزواج، لدي الآن بعض السيدات اللاتي لا يرغبن إلا في المسيار ولديهن بيوت مهيأة لذلك إلا أن مهورهن تتراوح ما بين ٧٠ إلى ١٥٠ ألف ريال"!

وإلى ذلك تعيد الباحثة الاجتماعية الدكتورة عايشة المانع انتشار هذا النمط من الزواج إلى "محاولة الهروب من المسؤولية، إضافة إلى غلاء المهور، فأصبح كلٌّ من الشاب والفتاة يبحث عن مخرج يناسب حالته المادية والاجتماعية".

لكنها لا ترى هذا النمط من الزواج يمثل حلاً اجتماعياً بل دعت علماء الدين إلى إعادة النظر في تحليله، رافضة القول بأنه يحد من السفر إلى الخارج وانتقال الأمراض.

عضو الجمعية الوطنية لحقوق الإنسان وأستاذة علم النفس في جامعة الملك سعود وفاء محمود طيبة اعتبرت تشبيه انتشار المسيار بالأنفلونزا "تشبيها صحيحا، إذ كلا الاثنين يعد مرضاً بصورته الحالية، غير أن الأنفلونزا تذهب ولا تخلف آثارا تذكر على خلاف المسيار الذي يفتك بضحاياه من النساء وتبقى ندوبه وشماً قاسيا على معظم النساء اللاتي خضن تجربته".

ومع أن طيبة أكدت أنها لا تريد الخوض في "المسيار" من البعد الشرعي إلا أنها ضمت صوتها إلى "المانع" وأملت من علماء الدين أن يعيدوا النظر فيه، إذ "هو عبارة عن مجموعة من الحقوق الضائعة، وآلة للكذب والغش والخداع، في الوقت الذي يخلو فيه من كل معاني الزواج السامية".

تقنية الطلاق!

ربما كانت السنن الكونية قضت على جنس المرأة أن تكون مستهدفة من قبل نصفها الآخر " الرجل " بألوان من الهوى والهوان، ورغم كل الدعاوى بإنصاف المرأة إلا أن ممارسات الامتهان ضدها حاضرة في كل مجتمع، بغض النظر عما إذا كانت تلك الممارسات موافقة لشرعة أو قانون ما، إسلاميا كان أو خلافه.

وتأتي التقنية بدورها لتسهم في هذا المسلسل الذي أبى إلا أن تتابع حلقاته على " المرأة " لتخرج على بنات حواء بسوء الطالع بكرة وعشيا، فبعد التسهيلات التي قدمها البريد الالكتروني للمطلقين جاءت رسائل الجوال لتكون وسيلة أخرى أكثر نجعا في فجيعة الزوجات بتأبين أحبابهن!

هذا فضلا عن الجوال ذي الكاميرا الذي أضحى جاسوسا ضد النساء يرصد تحركاتهن ويسجل أدق خصوصياتهن، ما جعله مطلوبا للعدالة في بلدان عدة.

فعلى الرغم من كون التشريعات الإسلامية هي الأكثر إنصافا للمرأة إلا أن واقع المسلمين والعرب الذي يفترض منه أن يجسد

الإسلام لم يقصر في جفاء المرأة وهضمها الحقوق التي منحها إياها الإسلام كدين.

ولهذا تقول الكاتبة الصحافية الدكتورة نورة السعد لدى تعليقها على بعض الفقرات التي جاءت في تقرير الأمم المتحدة عن التنمية في العالم العربي في أحد إصداراته: "ما نعيشه واقعا عمليا أننا كنساء مسلمات يتحكم (العرف) وليس التشريع الإسلامي في إيفائنا حقوقنا كاملة وغير منقوصة، وهذه حقيقة ينبغي علينا كمجتمع مسلم وجهات مسؤولة ونحن كنساء أن نعيها، ومن ثم نعمل على المطالبة بإيفائنا حقوقنا كاملة وأن نستوعبها جيدا ونعلمها أبناءنا وبناتنا، فالجهل بحقوقنا مواطنين وليس نساء فقط هو جزء في إشكالية التخلف مع بقية العوامل الأخرى السياسي منها والاقتصادي".

وفي هذا الصدد يعد من المؤسف حقا أن يكون الرجل في العالم الاسلامي أول من بعث عبر التقنية رسالة طلاق إلى زوجته، كما تعدّ ماليزيا الدولة الثانية على مستوى العالم التي اعترفت بالطلاق عبر "رسالة جوال" .

وبهذا يعد ثلاثي: البريد الإلكتروني، ورسائل الجوال، والجوال ذو الكاميرا أكثر جديد التقنية إضرارا بالنساء إذ يشجع بصورة كبيرة على فصم عرى العلاقات الاجتماعية.

جوالك يطلقك

كنا قد أجرينا استفتاء بين عينات عشوائية من السيدات عما إذا كن يعتقدن أن الجوال سيكون " مكروها " لدى النساء من أجل إمكانية نقله لرسالة تحمل طلاقها، وما إذا كان أيضا يشجع على الطلاق عند تعكر صفو المودة بين الزوجين .

ذهبت الغالبية منهن إلى أن النساء يتعلقن بالجوال بدرجة كبيرة ولا يمكن أن تؤثر حادثة أو حادثتين حول العالم في ذلك .

وتقول أسماء (ربة بيت): "لا أعتقد أن نظرة النساء إلى الجوال الإيجابية ستتأثر بحالة طلاق عبره إلا على مستوى ضيق".

وترى أن العائلة التي طلقت ابنتهم عبر الجوال من المؤكد أنها ستنظر دوما إلى الجوال بتشاؤم.

وأما كونه يشجع على سرعة البت في الطلاق فاتفقت كامل الشريحة على أنه ربما كان كذلك إذ "لو كان الزوج همّ بطلاق زوجته ـ لاسمح الله ـ وهو في مجلس أو مكان ما لأمكنه ذلك بكل سهولة عبر الجوال .. بينما إذا لم يكن لديه أو لدى زوجته "نقال" فإن حدة الغضب التي انتابته في تلك اللحظة قد تذهب، ويعود إليه رشده قبل أن يواجه زوجته، بمعنى أنه يحد من فرصة مراجعة النفس والتروي لدى الزوج ويساعده على سرعة اتخاذ القرار".

رسائل الهاتف من أسباب الطلاق

ومن ناحية أخرى أضافت الرسائل الموجهة عبر الهواتف النقالة سبباً جديداً للطلاق في دولة الإمارات العربية المتحدة التي تعاني أصلا من نسبة ارتفاع الطلاق بين أبنائها.

ونشرت صحف إماراتية عدة، أن دائرة الإصلاح والتوجيه الأسري في محاكم دبي، والتي تتولى مهمة إصلاح ذات البين بين الأزواج، تنظر في ١٥ حالة خلاف زوجي قد تؤدي إلى الطلاق بسبب الرسائل الواردة عبر الهاتف النقال.

ومن الحالات التي تسعى الدائرة لحلها قبل وقوع الطلاق، اتهام إحدى الزوجات لزوجها بالخيانة وإصرارها على طلب الطلاق بعد أن قرأت على هاتفه الشخصي رسالة غرامية أرسلها أحد أصدقائه، ولم تفلح كافة المحاولات بإقناعها بأن مرسل الرسالة رجل وليس امرأة، ورفضت أن تصدق بأن رجلاً على الأرض يمكن أن يرسل لصديقه رسالة كهذه.

وحالة أخرى سببها قراءة زوج لرسالة عادية على هاتف زوجته أرسلها مدير الشركة التي تعمل بها الزوجة على سبيل المازحة، وحلف الزوج أغلظ الأيمان على أن لا تبقى زوجته في ذمته، وأن الرسالة ستكون نهاية لعلاقة زوجية استمرت ست سنوات وأثمرت طفلاً.

الطلاق عبر البريد الإلكتروني

وبعد انتشار الإنترنت في العالم الإسلامي ربما طلق عبر البريد الإلكتروني أشخاص كثيرون غير أن أولى القضايا التي أثارت جدلا تناولته وسائل الإعلام على شكل متسع قضية السيدة المصرية التي تعمل مرشدة سياحية، المطلقة من زوجها المقيم في ألمانيا عبر رسالة بعثها إليها على بريدها الإلكتروني، ما دفعها هي الأخرى بالتقدم إلى المحكمة مصطحبة معها رسالة الطلاق وعقد الزواج لاستصدار صك الطلاق، الأمر الذي أثار جدلا واسعا من الناحية الفقهية، رغم إصدار المحكمة حكما بطلاق السيدة من زوجها .

وقد أكدت في حينه لجنة الفتوى بالأزهر أن الزواج هو الرباط المقدس الذي شرعه الله سبيلا لتكوين الأسرة، فحدد وسائل إتمام هذا الرباط أو إنهائه ولكن مع وجود الوسائل الحديثة والتقدم التكنولوجي ظهرت وقائع جديدة لم تتطرق الفتاوى الشرعية لحكمها من قبل .

وفي حينه ترقبت الأوساط العلمية وعُد لجنة الفتوى بمحاولة إصدار فتوى بالضوابط الشرعية للطلاق والزواج الإلكتروني وحدود المحظور منه والمباح.

وقد عارضت جمعية المأذونين المصريين إتمام الزواج أو الطلاق عبر الإنترنت لما قد يكون فيه من إهدار للحقوق الزوجية

التي أقرتها الشريعة الإسلامية، لأن الزواج يحتاج إلى توثيق بالإضافة إلى التأكد من صحة الإيجاب والقبول ومن شخصية طرفي العقد، والإنترنت لا يتيح ذلك .

وأكدت الجمعية أن هذا الأمر قد يحدث فتنة كبيرة من خلال التلاعب بالبيانات الإلكترونية، والأمر ذاته ينطبق على الطلاق لأن اختراق الإنترنت سهل وبالتالي من الممكن أن يقوم أي شخص بتطليق زوجة صديقه ـ مثلا ـ عن طريق الإنترنت وبعد انقضاء عدتها تقوم الزوجة بالزواج من زوج آخر في حين أن زوجها لم يطلقها بعد" .

أما فوبيا الجوال المزود بالكاميرا فتضاعفت في السعودية بعد "عملية الاغتصاب " التي بثت عبر جوال (الباندا)، ولا يزال جوال الكاميرا " المطلوب الأول للعدالة " في صالات الأفراح، والجامعات وأماكن التجمعات النسائية، ورأت الداعية أسماء الرويشد أن "النساء لم يعدن يشعرن في وجوده بالأمان".

الخيانة بنية الطلاق!

في جنوب السودان "تحولت ممارسة الجنس الحرام نافذة وحيدة أمام النساء لنيل الطلاق واستعادة المهر، حتى ولو كانت تقود هذه العلاقات الغرامية إلى السجن" على حد تقرير نشرته واشنطن بوسط في آب (أغسطس) من العام ٢٠٠٥.

وفي أكثر البلدان العربية والإسلامية لم تصل صعوبة الطلاق إلى هذا الحد من السوء، مثلما هي في أودية جون قرنق، والفتيات السمراوات في تلك الناحية من العالم البائسة. لكن المرأة السعودية على سبيل المثال، بدأت تعاني شدة تعسف بعض الأزواج عند طلب الخلع أو الطلاق.

وترى الكاتبة السعودية رانية باسلامة أن "مشكلات من هذا النوع باتت حديث النساء في المجالس في جانب ابتزاز الأزواج للمرأة حين تطلب منه الطلاق" لكنها عادت باللائمة على المرأة التي اعتبرتها " مفرّطة في طلب حقها، وتجد الذهاب إلى المحكمة عيباً، وتبقى شاكية ظلم الزوج بسبب نظرة العيب الاجتماعية. في معظم الحالات عندما نسأل المرأة عما إن كانت لجأت إلى القضاء لانتزاع

حقها نجدها لم تقم بذلك أساساً. في الجانب الآخر هنالك العديد من المعاناة الإنسانية لدى النساء نتيجة بطء الحكم الذي يحسم الجدل في دعواها ضد زوجها الذي كثيرا ما يتميز بالعناد وقلة الإنصاف".

وتابعت سلامة قائلة "أنا سألت الداعية فاطمة نصيف بحكم توسطها في العديد من حالات الاختلاف في محيطها عن حجم الصعوبة التي تجدها الزوجات عند لجوئهن إلى القضاء بهدف طلب الطلاق ومن ثم انتزاع حقوقهن (أولاد، أموال) فأفادت بأن بعض القضاة يتعمد تأخير البت في شكاوى الطلاق أملاً في تسوية بين الطرفين عن طريق الإصلاح أو التراجع عن الدعوى".

ومن جانبها تعلق سلامة بأن " إجراء مثل هذا ليس دائما صواباً، فليست كل النساء متسرعات. هناك نساء تقدمن بطلب الطلاق بعد أن باءت كل جهود الإصلاح الذاتية بالفشل، ولم يعد مجديا بالنسبة لها غير الطلاق".

وعند الأضرار التي تدفع إليها المماطلة في إجراء طلب الزوجة الطلاق، تتقاطع سلامة مع المحامي السعودي محمد المشوح واعتبرا جميعا أن " تعليق المرأة من جانب الزوج المتعنت، والقاضي الذي يؤمل تسوية بينها وبين زوجها، تعرض المرأة لأضرار بالغة، وأحيانا تبرر بها بعض السيدات أخطاءهن في بيت الزوجية".

لكنهما (المشوح وسلامة) استدركا بأن "ذلك لا يبرر إقدام المرأة على أي سلوك مناف للدين والأخلاق. لا أجد عذرا لأي

إنسان يبرر الانحراف بممارسة الضغوط ضده، بيد أن بعض القضايا بالفعل تحتاج إلى تدخل وحسم عاجل".

ووعي المرأة السعودية "بحقوقها وكيفية المطالبة بها" في اعتقاد رانية "أهم حل لمثل هذه المعضلات، فلماذا تشعر المرأة بالعيب في المطالبة بحقها أمام القضاء... والظلم يقع عليها من أقرب الناس إليها؛ زوجها؟ لم يقل لها أحد: اذهبي إلى التلفزيون وأعلني عصيانا عاما ضد الأسرة والقبيلة".

أما الحالات التي وجدت فيها النساء أنفسهن بين بطء القضاء وجحيم معاناتهن الزوجية فلها أمثلة عدة. تقول السيدة (ف.ح) "عقد علي والدي لرجل في عقده الخامس من قبيلتنا ليس ابن خالي ولا ابن عمي لكنه بدا مقبولاً، وظن والدي (ح) بأنه سيحقق لي السعادة التي تحلم أي فتاة بها، وهكذا مضت الأيام سريعاً وذهبت إلى بيتي في شكل عروس غير أن زوجي صعب علي تقبله، وبات أي أمل لإقناع قلبي النافر بالبقاء إلى جانبه أشبه بالمستحيل".

وهنا كان أول الخيط في معضلة (ف ٢٦عاما) التي اعتبرت زواجها محرقة أتت على شبابها فلم تهنأ بعيش سعيد ولا بحضن دافئ.

وتمضي تتذكر: "أخذت أفكر مليّاً في حالتي وزوجي. ضربت الأمر أخماسا في أسداس، وانتهيت إلى البقاء بجسدي معه، والعزوف عنه بروحي التي أبت التقرب منه. زوجي لم يكن يهتم

بصورة مفرطة. واجباتي المنزلية أؤديها على أكمل وجه. انشغاله بعمله لم يجعله يهتم هل قلبي معه أم لا. ليالي معه انتهت بحملي منه مرة واثنتين وثلاثة. الحياة مليئة بالتعاسة لأن الجسد وحده يعيشها والقلب يصلى سعير المعاناة. يئست من إصلاح ذاتي أو لم أطمع في ذلك أصلاً. الطلاق أهون من القتل لدي. فتاة جميلة من عائلة مرموقة كيف تلقب بمطلقة. لا يتفهمون أن التوافق بيننا معدوم. رضخت للقدر لكن النفس الأمارة بالسوء لم ترضخ. هوت بي إلى مغامرة أولى وثانية. أفقت وربيع عمري قد ولى. زوجي يحب أطفاله وأنا أحبهم. يجب أن نفترق تكفيرا عن الخطايا. أريد العيش لوحدي. أعشق لقب المطلقة. نفسي وأولادي من الألقاب أهم. انتهت قصة المأساة في ضاحية من ضواحي مكة حيث قضى الشيخ بعد نحو سنة بيننا بالطلاق، لكن معاناتي مع أبنائي أينا يملك حق بقائهم عنده لم تنته".

"لو كانت أسرتي تعتز بي مطلقة لما أخطأت. لما خسرت ربيع عمري بين جسد يقترب مني وأنا أكرهه. ومغامرات أقامت صرحا من الخطيئة بيني وبين ضميري". هكذا تختم (ف) حديثها لموقع إلكتروني وتحمّل "فوبيا الطلاق" والمجتمع خطاياها ومعاناة أخريات.

وإذا ما تجاوزنا (ف) وأعداد حروف الهجاء من مثيلاتها إلى حجم نصيب "القضاء والقضاة" في وضع العراقيل أمام الطلاق والباحثات عنه، فإن محامياً شهيراً متخصصاً في ما يعرف دولياً بـ "الأحوال الشخصية" لفت إلى أن أبرز "ما يورط النساء أمام

القضاة أمران: الأول أن رجالا يطلقون نساءهم ويجحدون أمام القضاء، وتبقى المرأة في قرارة نفسها متأكدة من أنها لا تحل لزوجها، ويبقى الرجل مصرّا غير مبالٍ، وفي الشريعة لا اعتبار لقول الزوجة في نفي الطلاق أو إثباته".

أما القضية الأخرى فهي - حسب المحامي أيضا - "تعنت الأزواج الذين يضايقون النساء ويعلقونهن أشهرا وسنين، أملا في افتداء المرأة منه بإعادة المهر، وحل النكاح عن طريق الخلع، وواضح في هذه الحالة أن الزوجة ستخسر أشياء كثيرة".

وأمام وجود نساء "معلقات سنين يفتقدن فيها حريتهن في الزواج، ويخسرن فيها نفقة الزواج وربما الأبناء أيضا" يرى المحامي الحل في " تسريع إيجاد محاكم الأحوال الشخصية التي تعنى بقضايا سكن المرأة والزواج والطلاق والحضانة، بالإضافة إلى ضرورة أن يخضع القضاة لدورات في الأمور الاجتماعية مثل الأخرى التي يخضعون لها في الإجراءات القضائية، ليدركوا التبعات التي تترتب على تأخير البت في بعض القضايا".

واتخذ مثالا على قضية تعاني منها النساء وزعم أن القضاة لا يزالون يشككون في اعتبارها مبررا لفسخ النكاح وهي:" إدمان المخدرات، فرغم الأضرار التي تتعرض لها النساء من جانب أزواجهن المدمنين لايزال القضاة يرون في إدمان المخدرات عيبا لا يفسخ بموجبه النكاح!".

أما نظرة المجتمع إلى المطلقة وتفضيله "العانس" عليها، فهو بين فئات السعوديين الاجتماعية بصور متفاوتة يجد رواجاً، يبقى معه "الطلاق" رغم إباحته عارا يطارد "المرأة".

التكافؤ ليس شرطاً

توصلت دراسة حديثة أجرتها باحثة اجتماعية سورية حول الأبعاد الاجتماعية والنفسية للحب وانعكاساته على مستقبل الحياة الزوجية إلى أن نسبة كبيرة من المتزوجين اعتمدوا على الطريقة التقليدية في اختيار زوجاتهم.

لكن ما اعتبرته الباحثة حصيلة مفاجئة للسائد في الرأي العام هو رفض النتائج للربط بين فشل أو نجاح الزواج، وبين التكافؤ في التعليم والنسب ومستوى المعيشة.

وأكدت الباحثة سهى هلال أن نتائج الدراسة أظهرت أن نسبة كبيرة ٦٠٪ من المتزوجين اعتمدوا على الطريقة التقليدية و٥٠ ٪ منهم يرون أنها الأفضل أي إن ١٠٪ فقط يرون أنها ليست الأفضل من المتزوجين بهذه الطريقة.

وترى الباحثة أن "نسبة ٥٠٪ تعبر عن اتجاه عام نحو القناعة بهذه الطريقة رغم أن العصر اختلف عن السابق والأمور اختلفت وأصبح الشباب لا يفضلون هذه الطريقة، فقد ظهر أن ١٨ ٪ فقط يفضلون هذه الطريقة في اختيار الشريك أي إن ٨٢٪ سيختارون

بأنفسهم و٢٨٪ منهم لديهم قناعة بأفضلية هذه الطريقة، وهنا يظهر الفرق بين المتزوجين وغير المتزوجين، فبينما يؤمن ٥٠٪ من المتزوجين بأفضلية هذه الطريقة، يوافقهم عدد أقل هو ٢٨٪ من غير المتزوجين".

والسبب من وجهة نظرها يعود إلى "اختلا ف الزمن والاختلاط بين الجنسين والمشكلات التي قد تنجم عن اختيار الأهل، وعدم قناعة الشباب به، ومع ذلك يظل هناك اعتقاد شائع بأفضلية هذه الطريقة عند نصف المجتمع تقريبا، وهو ما يبرر اعتقاد ٥٠٪ من عيّنة المتزوجين أن الحب قبل الزواج عامل مهم لنجاحه، مقابل ٧٧٪ من غير المتزوجين أكدوا أهمية الحب قبل الزواج ".

وظهرت الفروق بين المجموعتين (المتزوجين وغير المتزوجين) فيما يتعلق بمفهوم الحب في ناحيتين حسب الدراسة ... الأولى: ما إذا كان الحب يأتي بعد الزواج فأجاب ٦٢ ٪ من المتزوجين بنعم، مقابل ٥٠٪ من غير المتزوجين.

وفسرت الباحثة ذلك بأنه نتيجة للاختيار الواقعي " إذ وجد ٦٢ ٪ من المتزوجين مشاعر الحب تأتي مع الحياة المشتركة والآمال المشتركة والآلام ومصاعب الحياة، كل هذا يخلق مشاعر حب ربما لم تكن قبل الزواج، وهي نسبة أكبر مما هي عليه عند الشباب، فهم يعلقون آمالا كبيرة على الحب من جهة، ويعتقدون بمعنى وحيد

للحب، وهو الذي يأتي قبل الزواج وينكرون أهمية الحياة المشتركة بعد الزواج في خلق وتطوير هذه العاطفة".

وأما الناحية الثانية في الفرق بين المجموعتين كما سجلت الدراسة فتمثلت في مدى كون الجنس هو الأساس في الحب فكانت إجابة "١٦٪ من المتزوجين بالإيجاب مقابل ٦٪ ترى خلاف ذلك".

وترى أن النتيجة لم تزد على أن "أظهرت الفرق بين المجموعتين، فالجنس هو مكمل للحب وشكل من أشكال التعبير عن الحب، ولكنه ليس الأساس هذا برأي الشباب ولكن المتزوجين يحتل الجنس في حياتهم أهمية أكبر منها عند غير المتزوجين، وربما يعود الأمر إلى النظرة السلبية للجنس وكأن عدم التفكير بالجنس هو من المثاليات التي يجب أن يتمتعوا بها، مما يشير إلى أنهم يعيشون التناقض بين ذواتهم الواقعية وبين الذات المثالية التي يرغبون بتحقيقها".

أما عن السؤال الذي يعكس مصداقية الحب في المجتمعات فأظهرت نتائج الدراسة أن "٤٪ فقط من المتزوجين قالوا كلمة أحب وهم يدركون عدم صدقهم مقابل ٢٤٪ من غير المتزوجين فعلوا ذلك والسبب في انخفاض النسبة عند المتزوجين ـ كما ترى الباحثة ـ هو الارتباط، فيصبح التفكير بالتلاعب بمشاعر الآخرين أصعب منه في حالة غير المتزوجين، فهم غير مرتبطين ويعيشون حياة غير مسؤولة، أي إنهم أحرار من هذا الارتباط فيصبح التلاعب بهذه الكلمة السامية أكبر".

وترى أن ذلك " يعكس مدى التدنيس الذي يلحقه الشباب بهذه الكلمة، فهي تستخدم وكأنها أسهل كلمة يمكن قولها" كما أظهرت عدم وجود فروق بين الذكور والإناث في اختيار طريقة الزواج فالنسب متساوية تقريبا وعزت (أي الباحثة) السبب إلى أن "الفروق تضاءلت بينهم بسبب الاختلاط في مرحلة الدراسة الجامعية".

لا تأثير للمال وللتعليم في نجاح الزواج

وفي ناحية الفرضيات التي طرحتها الدراسة تبين من الأولى عدم وجود علاقة ذات دلالة إحصائية بين طريقة الزواج وبين نجاح العلاقة الزوجية، وهذا ما فسرته بأن "المشكلة ليست طريقة الزواج حتى تنجح العلاقة الزوجية، والأهم هو فهم الطرفين لمعنى الحب ومعنى الزواج ومعنى الارتباط والصدق الذي يتمتع به كلا الطرفين، فإذا تزوج شخصان بعد قصة حب وكان فهم كلٍّ منهما أو أحدهما للحب خاطئاً فبالتأكيد لن تنجح العلاقة الزوجية وبالمقابل فإن الزواج الذي يعتمد على الأهل اعتماداً أعمى دون تفكير أو وعي فلن ينجح، فلكل طريقة أخطاء، ولا توجد طريقة أفضل من أخرى".

لكن النتائج أيدت صحة الفرضية الثانية بصورة غير متوقعة فلم تؤكد وجود علاقة ذات دلالة إحصائية بين التكافؤ التعليمي بين الزوجين وبين نجاح العلاقة الزوجية، خلافا للسائد! بينما أثبتت النتائج صحة الفرضية الثالثة في عدم وجود علاقة ذات دلالة إحصائية بين المستوى الاقتصادي للزوج وبين نجاح العلاقة الزوجية".

وتخلص الباحثة في خاتمة بحثها إلى أن "الناس القادرين على الحب في ظل النظام الاقتصادي الحالي هم بالضرورة استثناءات، ليس لأن المشاغل لن تسمح بموقف الحب بل لأن روح المجتمع السلعي الشره المتمركز في الإنتاج هو على نحو لا يجعل سوى ما عبرت عنه (اللاممتثل) وحده هو القادر على الدفاع عن نفسه بنجاح ضده".

وتكمل: "إن الحديث عن الحب يعني الحديث عن الحاجة القصوى والحقيقية في كل إنسان وإذا كانت هذه الحاجة تشوشت فهذا لا يعني أنها غير موجودة."!

زوجة وساحرة!

ليست الشغالة السعودية الأنثى الوحيدة التي تلعب أدواراً متناقضة، تجمع بين وظيفتها، وما يضاف إليها من أعباء قدَرية، بسبب نظرة الرجل لها بأعين كثيرة.

وإذا كانت إحصاءات موثقة غائبة عن الساحة السعودية في الوقت الراهن عن عدد الشغالات اللاتي يمارسن أدواراً متباينة بفعل نظرة الرجل المتناقضة للأنثى -أيّ أنثى- فإن السعوديين في منتدياتهم ومجالسهم يتداولون أحاديث هي لمجرد الإمتاع والمؤانسة، إلا أنها في الغالب تجسد حقائق، كثيرا ما تكون مُرّة في اتجاهات مختلفة.

وإذا كانت دراسة حديثة كشفت أن "النساء الجميلات يكسبن دخلاً أعلى بنسبة ١١٪ من العاديات و٢٣٪ من القبيحات! وقبل ذلك أثبتت ملاحظات دائرة العمل الأوروبية أن أصحاب الوجوه الجميلة والقوام الممشوق يحظون بوظائف أفضل ويترقون بشكل أسرع. كما اتضح أن الفتيات الجميلات (ذوات القد الخيزراني) يتواجدن بنسبة أكبر في المكاتب الحساسة ويترقين بسرعة - وكثير منهن يتمنين الزواج من صاحب العمل كما حدث لسكرتيرة بيل

غيتس أغنى رجل في العالم!! "، فإن الشغالة السعودية كثيرا ما ارتقت من خادمة إلى زوجة أو عشيقة أو ساحرة.

لكن السعودية مع ذلك ليست بدعا من العالم الآخر، فوزير العمل بها الدكتور غازي القصيبي الذي يبذل جهودا مضنية في حماية الشغالات والمواطنين من بعضهم، صور في روايته "دنسكو" كيف تلعب "سونيا" مديرة مكتب المدير التنفيذي لمنظمة دولية أدوارا متباينة، حتى انتخبت مديرة للمنظمة، بمؤهلات أبرزها "توزيع القبل"!

كما أن الحملات الأمنية التي أجرتها السلطات السعودية أخيرا في عدد من المدن كشفت عن أسراب من النساء الشغالات، لكنهن في واقع الأمر كن يمارسن أشياء أخرى!

وفي اتصال هاتفي مع "الحياة" تحدث عضو هيئة في أحد ضواحي مدينة الرياض بمرارة عن مأساته وعائلته بسبب "شغالة" لا تريد الاكتفاء بمهنة واحدة، خصوصا إذا كانت من قبيل طبخ الطعام وغسل الآنية.

وتعود تفاصيل معاناة السيد (محسن) ٤٥عاماً إلى عام ٢٠٠٢ عندما نشبت مشاجرة بين ابنتيه الشابتين والخادمة، بسبب ما وصفه بـ "غيرتها من حسنهما وحظوتهما عند الناس"، قام على إثرها بإبعاد الخادمة إلى بلادها، من غير أن يفكر في أمر سوء كانت دبرته للفتاتين (!!) "فلم يمض يوم عن سفرها - والكلام لمحسن - حتى بدأت الفتاتان تصرخان نتيجة ألم حاد في أسفل

البطن، واستمرت المعاناة، رغم مراجعة المستشفيات حتى تذكرنا خلافهما مع الشغالة، وبدأنا في علاجهما بالرقية الشرعية".

ويضيف: "خفت المعاناة قليلاً لكنّ الفتاتين حرمتا من الزواج والعيش باطمئنان، بسبب إجرام الشغالة التي بذلنا كل ما بوسعنا بحثا عنها بعد ذلك، إلا أن المحاولات كلها باءت بالفشل"!

وينصح (محسن) مواطنيه "بتفتيش أي خادمة مريبة قبل تسفيرها، حتى في مناطق جسمها الحساسة، فقد وجدت إحدى العائلات في ملابس خادمتهم الداخلية سحراً كانت تنكره، والبيوت مليئة بالفواجع والمآسي بسبب بعض هؤلاء الخادمات".

ومن ناحيته روى الشاب (خالد) ٢٨ عاماً لـ "الحياة" قصته المثيرة مع خادمة خالته التي قال إنها أغرته أكثر من مرة إلا أنه أصر على تجاهلها "خوفا من الله، ثم الفضيحة".

يحكي أنها " بعد ذلك هددتني بأنها ستعاقبني كما يليق بي، وبالفعل تمكنت من ذلك، على رغم سخريتي منها واستهتاري، سحرتني وأصبحت أقبل الأرض من تحت قدميها أتوسل إليها أن تمكنني من نفسها فترفض، وتتفنن في إذلالي زعما منها أن ستنقاد لرغبتي، لكنها استمرت في تعذيبي النفسي، حتى تفاقمت علتي، واشتكيتها إلى خالتي التي أبعدتها مع الأسف دون أن تفك السحر، ظنا منها أنه مجرد غرام طبيعي، غير مصدقة تفاصيل ماحدث، ومع ذلك الحمد لله مع الرقية واللجوء إلى الله أصبحت الآن أحسن بكثير"!

وإذا تجاوزنا بدهية أن ليس كل الشغالات في السعودية أو أي مكان آخر لسن رمزا دائما للخطيئة، فإن السعوديين أيضا – مثل غيرهم – كثيرا ما يكونون شركاء في ما يصنف مخالفات أو جرائم، تكون الخادمات طرفا فيها.

وتتحدث (أم أحمد) ٢٥ عاماً عن جارتها التي زعمت أن زوجها، طلبت منه السفر إلى " إحدى دول شرق آسيا، ليحضر لها خادمة، وبعد إلحاح منها شديد قبل على مضض، وفعلا أتى بخادمة ذكية ومليحة، ومرت أول الأيام بسلام".

وتمضي أم أحمد على لسان صديقتها قائلة:" بعد مرور نحو أربعة أشهر خرجت إلى عملي ذات يوم، فبدا لي أن أعود، لا أذكر ماذا نسيت، وكان اعتقادي أن زوجي هو الآخر اتجه إلى عمله، لكن الذي حدث أنه يمارس أشياء أخرى مع الخادمة في ذات الغرفة التي كنت أحسبها لي وحدي".

وزادت: " لم أتمالك نفسي. صرخت بأعلى صوتي: أمنك يحدث مثل هذا العار؟ كنت مصدومة ومجروحة وحائرة. ماذا حدث لفلان؟ غير أنه قطع صوت آلامي بصك زواج له مع خادمتنا أشهره في وجهي. بقيت مصرة على أن تسفر في الحال. وقلت له: ترغب زوجة أخرى ابحث عنها، أما أن تكون شغالتي ضرتي، فذلك مستحيل".

بالطبع ستتجه الخادمة المسكينة إلى عاصمة بلادها فوراً، بفعل شبق "عمها" الذي يزعم أنه يمارس حقه الشرعي. وهكذا

تبقى الشغالة السعودية ظالمة ومظلومة، إلى أن تخدم الأنثى السعودية نفسها، ويكف "أصحاب العمل" عن الظلم الذي حرمه الله على نفسه وجعله بين عباده محرماً!.

الفقر يتهدد "العفة"

في وقت مبكر من الحياة الإنسانية خاض البشر صراعاً مع نوازعهم وغرائزهم. كما خاضوا آخر مع الأقدار الكونية من أجل البقاء. وعلى الساحات التي شهدت معارك الإنسان تلك مع نفسه والأقدار تجد "البشر" ما بين صرعى وجرحى، وآخرين في فتوة وعافية، "وما ربك بظلام للعبيد".

هكذا مضت الحياة بتضاريس أهلها وألوانهم وأذواقهم. يقوى الإنسان ويضعف. يموت ويحيا. يغتني و يفتقر. يشقى ويسعد. يفرح ويترح. لكنه في كل الحالات يعيش حالة "ما" من الصراع. حتى إن علماء الدين يؤكدون أن هذا الصراع يمضي مع الإنسان إلى آخر لحظة في الدنيا مع الشيطان، ينهزم فيها الانسان أو ينتصر.

إذا كانت الصراعات بهذه الكثرة، فإن الحديث هنا سيقتصر على واحد منها بين "الضمير والفقر". أحياناً يعبرون عن الضمير بالدين والشرف والكرامة، وعن الفقر بالفاقة والحاجة والحرمان والبؤس وكاد أن يكون كفراً. أيا كانت الأسماء، نسأل: أي الفريقين أشد بأساً وأكثر تهديداً للآخر؟

في التنظيرات الرومانسية تتداول العرب أمثالاً من قبيل "تجوع الحرة ولا تأكل بثدييها" كناية عن أن الحر أنثى أو رجلاً يتحمل مقاساة الشدائد في مقابل أن تبقى كرامته موفورة.

لكن التنظيرات الميدانية تجيء في معظم الحالات مناقضة لهذه المثالية المفرطة، إذ تشير التقارير إلى أن الدول الفقيرة مالياً أو تربوياً باتت مناجم للبغاء في العالم.

وترى المسؤولة في مركز التنمية الاجتماعية في الرياض فاطمة الهويدي أن الفقر يأتي العامل الثاني في ارتكاب النساء للمحظورات السلوكية.

عادت بمال وشرف ضائع!

وأكدت في اتصال هاتفي مع "الحياة" أنها بحكم عملها اطلعت على حالات مزرية لأسر تعاني فقراً شديداً وقلة في الدين دفعها إلى التغاضي عن سلوكيات بناتهم اللاتي "يعدن في المساء أو بعد أيام بحصيلة لا بأس بها من النقود"!

وأضافت: "إن أمّاً أتت إلي عندما كنت أقيم برنامجاً توعوياً في أحد الأحياء وعبرت لي عن سوء حالها المادي انتهى بها إلى دعوة ابنتها الشابة إلى التسول عند إشارة المرور، لكنها لم تتوقع أن تكون خطورة الأمر بنفس الحجم الذي حدث، إذ قالت إن ابنتها غابت يومين في إحدى المرات وعادت بشرف ضائع بعد أن ساومها شخص عند الإشارة، واستجابت تحت وطأة الحاجة".

الأم التي شكت للهويدي لم تكن تسأل عن إعادة شرف ابنتها الضائع ولكنها تحاول أن تشرح للمسؤولة الاجتماعية مرارة واقعها المادي، غير أن الهويدي علقت بأن "الفقر ليس حجة لأن تبيع المرأة جسدها أو الرجل كرامته. فالنبي -صلى الله عليه وسلم- عندما جاءه رجل وطلب منه الصدقة دعاه إلى العمل، واشترى له فأساً لكي يحتطب، في إشارة إلى أن أي عمل مهما كان صغيراً في أعين الناس هو أشرف من ذل السؤال، ويحفظ للإنسان كرامته".

ولذلك فإن الهويدي وزميلاتها في مركز التنمية الاجتماعية يقمن بتوجيه الشاكيات إلى أعمال يسيرة توفر لهن كسباً حلالاً "مثل بيع المناديل أو المياه أو بعض الأعمال الشعبية" ويُحلِّنَ ذوات المشكلات الملحة إلى جمعية النهضة النسائية الخيرية.

لكنها تقر بأن ذلك -إضافة إلى كل الجهود المبذولة من جانب الدولة ممثلة في وزارة الشؤون الاجتماعية- لن يمنع المرأة إذا قل وازعها الديني من الاتجار بجسدها، خصوصاً إذا تلقت عروضاً مغرية من ضعفاء النفوس، في وقت تواجه فيه وطأة الفقر والحرمان".

الوازع الديني قبل الفقر

وتتابع:" أعتقد أن الدين هو الحصن الذي يدفع عنا الانحراف الأخلاقي فنحن نرى أن الممارسات الأخلاقية الشاذة أسبابها في المقام الأول ضعف الإيمان والوازع الديني، والدليل على ذلك أن

هناك متورطين في بعض السلوكيات الخاطئة وهم ليسوا فقراء وربما كانوا أغنياء".

وتتقاطع الدكتورة سعاد يماني مع الهويدي عند هذه الجزئية لكنها اعتبرت "البيئة أكثر تأثيراً من الفقر ومن الوازع الديني على سلوكيات الأفراد والأسر، ولذلك فإننا نرى الأسر المفككة والأحياء الأكثر فقراً هي الأكثر احتضاناً للسلوكيات الخاطئة والظواهر الإجرامية، وهذا يلقي مسؤولية مضاعفة على الجهات التربوية والاجتماعية في القيام بواجباتها نحو الأحياء الفقيرة في المدن والأطراف".

صامدات يخشين الانهيار!

وفي اعتقاد عضو الجمعية الوطنية لحقوق الانسان سهيلة زين العابدين حماد تتجاوز خطورة الفقر جوانب الغواية السلوكية إلى "العمالة والخيانة الكبرى".

وتقول لـ "الحياة": الفقر يشكل آفة اجتماعية وأخلاقية على المجتمعات، ولا سيما عند غياب الوازع الديني، والتربية السليمة، ومن خلال واقع المجتمعات والبيئات الفقيرة إذ تتغلب عند الفرد نوازع الشر على الخير، وتتغلب غرائز حب البقاء والجنس على القيم والأخلاق، فأمام الجوع والحاجة إلى الطعام والمأوى والملبس قد تضعف النفس البشرية فتضطر إلى السرقة، أو القتل في سبيل الحصول على المال، وقد تضعف أمام إغواء المال فينضم صاحبها

إلى خلية إرهابية، أو إلى جهاز مخابرات للعدو ليتجسس على بلاده لصالح عدوها اللدود".

وأضافت: "كما أن ضعف الإنسان أمام غريزة الجنس بات شائعاً فقد يرتكب فاحشة الزنا مع إحدى محارمه التي ينام معها في حجرة واحدة لضيق السكن، وقد ينام وجسده يلاصق جسد أخته، وأثبتت الدراسات أنَّ كثيراً من جرائم زنا المحارم تكثر في الأسر الفقيرة. كما نجد أنَ ظاهرة العنف الأسري تكثر أيضاً في هذه الأسرة".

وتكمل: "أما المرأة فالفقر قد يضطرها إلى بيع جسدها من أجل لقمة العيش، وكم من امرأة مارست البغاء لشدة حاجتها للمال، وحتى لو طرقت أبواب العمل الشريف فقد يساومها رب العمل على تسليم نفسها له مقابل تعيينها لديه، أو يتحرش بها جنسياً، وكم من فتاة هاتفتني تطلب المعونة المالية هي وأخواتها، وأنَّهن صامدات من أجل الحفاظ على شرفهن، ويخشيِّن من الانهيار والضعف"!

وتذهب حماد إلى أن إدراك الدولة حجم خطورة ذلك "كان دافع خادم الحرمين الشريفين الملك عبد الله إلى العمل من أجل مكافحة الفقر، وتشجيع الشباب والأسر على عمل مشاريع صغيرة تُمول من صندوق مكافحة الفقر".

لكنها ترى القضاء على الفقر غير ممكن إلا "بالقضاء على البطالة وتوفير فرص العمل للشباب من الجنسيِّين، ومنح المرأة حق

الولاية على نفسها ومالها، والتعامل معها معاملة كاملي الأهلية، وهذه حقوق منحها إياها الإسلام، ومن أسباب فقر المرأة السعودية تجريدها من هذه الحقوق، وعدم حمايتها ممن يستغلها ويستولي على أموالها، ويحرمها من ميراثها وحقوقها المالية من أقربائها ووكلائها".

لا يمكن التسليم

لكن الباحث الاجتماعي والمتخصص في الشريعة عبد الله بن ناصر السدحان، رجح في دراسة علمية مطولة أعدها أن الفقر ليس عاملاً أساسياً في الانحراف السلوكي وإن كان موجودا، على اختلاف بين الدارسين الاجتماعيين في ذلك.

ومع أن السدحان أكد ابتداء أنه سيذكر كل جوانب "الظاهرة الاقتصادية والعلاقة بينها وبين السلوك المنحرف" إلا أنه يرى أن لاغرابة في ظهور آراء تربط "بين الانحراف السلوكي وبين التغيرات الاقتصادية المختلفة، مثل الغنى أو الفقر، وحالة الرخاء أو حالة الكساد الاقتصادي، أوالبطالة"، في وقت يلعب فيه الاقتصاد دوراً أساسياً في تقدم أو تأخر الأمم، ولذلك عده بعض الباحثين من أمثال (كيتليه) و(ميشيل فري) و(بونجر) و(سيرك بيرت) عاملاً من العوامل المهمة الموجهة للسلوك الإنساني، ويؤثر عليه تأثيرًا يلمسه كل دارس للسلوك الإنساني"، بل هناك من يرى الظرف الاقتصادي للمجتمع "أول الظواهر الاجتماعية التي وقف عندها المفكرون حين أرادوا دراسة ظاهرة الجريمة، ابتداءً من فلاسفة اليونان وحتى العصر الحديث".

ويضيف: "أصحاب هذا الاتجاه (ربط السلوك الاجرامي بالفقر) يرون أن للفقر دوراً في رفع معدلات انحراف السلوك، خاصة في جرائم الأموال، والتسول، والتشرد، والدعارة في بعض صورها.. ويعتمد أصحاب هذا الاتجاه فيما ذهبوا إليه على نتائج العديد من الدراسات التي ظهر فيها أن غالبية مرتكبي السلوك المنحرف هم من ذوي المستويات الاقتصادية المتدنية.. ومن أبرز الدراسات في هذا المجال الدراسة التي قام بها العالم الإيطالي (فورنساري دي فيرس) عام ١٨٩٤م، وشملت إيطاليا وإنجلترا وإيرلندا وجنوب ويلز، وشملت العديد من أنواع الجرائم، وانتهت إلى القول: إن الفقر هو البيئة التي تتهيأ فيها كل الدوافع لارتكاب الجريمة" وغيرها.

ويعزو أصحاب هذا الرأي السلوك المنحرف للفقر، كما يقول السدحان من واقع أن الفقير يعجز عن توفير "بعض متطلبات الحياة الضرورية للفرد والأسرة، وكذلك انعدام العناية الصحية، وانقطاع الأبناء عن مواصلة التعليم، إضافة إلى (حرمان الأولاد من أسباب اللعب والتسلية في المنزل، وخروجهم إلى الشوارع لقضاء الوقت وقتله، والاختلاط بكثير من رفاق السوء، كما أنه قد يرغم الأطفال على ترك مقاعد الدراسة.. ونتيجة لهذا تتفشى الأمية بينهم، فيشبوا جهلاء لا يقدرون على تمييز النافع من الضار، والخير من الشر، والفضيلة من الرذيلة، وبذلك يكونون لقمة سائغة لتيار الانحراف والجنوح)".

غير أن السدحان على الرغم من ذلك استبعد إمكان التسليم "بأن الفقر عامل رئيس لارتكاب السلوك المنحرف، بل هو عامل من العوامل المتعددة التي تؤدي إلى السلوك المنحرف، بدليل وجود الملايين من الفقراء يسلكون الطريق السوي رغم فقرهم، إضافة إلى وجود سلوك منحرف بين أفراد الفئة الغنية، وكما يذكر العالم (بيرت): (إذا كان أغلبية المجرمين من الفقراء، فإن أغلبية الفقراء ليسوا من المجرمين). يضاف إلى ذلك ظهور بعض الدراسات التي أثبتت عدم وجود علاقة بين الفقر والسلوك المنحرف، مثل دراسة الباحثة الإنجليزية (ماري كاربنتر) عام ١٨٥٣م، التي انتهت إلى القول: بأن تأثير الفقر على الأحداث أقل بكثير من تأثير التكوين الثقافي والاجتماعي لآبائهم عليهم، ودراسة (شليدون والينور غلوريك) عام ١٩٥٠م، التي أجريت على (١٠٠٠) حدث (٥٠٠ منحرف، و٥٠٠ غير منحرف)، وظهر فيها أن عدد الفقراء من أسر غير المنحرفين لا يختلف كثيرًا عنه في أسر المنحرفين".

السدحان اعتبر في الدراسة التي أعدها ونشرها موقع وزارة الأوقاف القطرية أن الباحث الغربي (سذرلاند) من أشد الناس الذين انتقدوا ربط الانحراف بالفقر، بل على العكس من ذلك يرى أن الانحراف مرتبط بالثراء، إذ الأثرياء لديهم قدرة على ارتكاب الجريمة بما يملكون من نفوذ في المجتمع بسبب ثرائهم، وذلك مما يعينهم على إخفاء أمرهم عن السلطات".

الفساد عدوّ الضمان الاجتماعي

"الضمان الاجتماعي" أو "التكافل الاجتماعي" مصطلح آسر في قاموس الحياة الإنسانية، غير أنها كسائر المفردات الرنانة لا تغني شيئاً إن كان الواقع أعرج أو مشلولاً.

حتى إن الزميل والكاتب عبد العزيز السويد قال إنه بات يتوجس خيفة من كل اسم جميل، أن يخفي من ورائه مصيبة، في معرض حديثه عن "ميثاق" للتأمين التي تهاوت مع شعاراتها الرنانة.

وفي معظم المجتمعات الإسلامية لا يجد المتحدثون عن الإنسان وكرامته ومتطلباته، مهربا من ضغط الواقع المزري أحياناً عدا الحديث عن "دين الإسلام، وكيف جاء بتكريم الإنسان، وحفظ الضرورات الخمس: الدين، والعقل، والمال، والعرض، والنفس" بينما السؤال المحرج دوماً: "أين نحن من حفظ هؤلاء الخمس عملياً؟ أما التاريخ فإنه مادة جميلة للعبرة والمطالعة، لكنها لا تداوي مريضا ولا يقتات منه فقير أو بائس".

هكذا يرى عضو حقوق الإنسان في السعودية الدكتور حمد الماجد الذي يعتبر "المقارنة بين واقع الضمان الاجتماعي اليوم في

الغرب والعالم الاسلامي تذهب لصالح الأول، على الرغم من الإرث الإسلامي الجميل في هذا الصدد".

وروى لـ "الحياة" واقعة كان طرفاً فيها، عندما وضعت زوجه طفلاً لم يبلغ تمامه، فاحتاج إلى رعاية طبية مكثفة، كلفت الحكومة البريطانية نحو ثلاثة ملايين ريال سعودي، "على الرغم من أنني أخبرتهم بأنني سعودي ولدي تأمين، وأستطيع القيام بواجباتي، غير أنهم أكدوا أن هذا حق لكل إنسان على أرض بريطانيا".

الغرب قاد العالم بالضمان الاجتماعي

وأضاف الماجد: إنَّ المستشفى لم يتوقف عند الاهتمام بالطفل أثناء وجوده في المستشفى ولكن كلف ممرضتين عندما أُخرج بمرافقة زوجتي وتدريبها على كيفية التعامل مع هذا النوع من الأطفال، وشراء الأجهزة الطبية اللازمة، والنكتة الكبرى أنه عندما توفي الطفل بعد مرور عام من ولادته بعثوا إلي شيكاً بمبلغ (٤٠٠) جنيه استرليني، وقالوا: نقدر بهذا المبلغ قيمة الكهرباء التي استهلكتها الأجهزة الخاصة بالطفل مدة حضانتكم له في البيت قبل الوفاة"!

والماجد الذي أعاد فشل دول إسلامية في توفير الحد الأدنى من الرعاية الاجتماعية لمواطنيها إلى الخلل في ترتيب الأولويات، يرى أن "الغرب باهتمامه النموذجي بالإنسان صحة ومعيشة استحق قيادة العالم".

وأشار إلى أن مقللين في العالم الإسلام من شأن العناية الغربية بالإنسان يدافعون بأنهم "يقدمون كل تلك الخدمات من الضرائب، وهذا حق، لكن المواطنين في العالم الإسلامي كله يتمنون أن تفرض عليهم الضرائب مثل البريطانيين ويلاقوا قدراً مناسباً من الرعاية والاهتمام".

وحول الأسباب التي تبرر إخفاق دول إسلامية عدة في إقامة نظام للضمان الاجتماعي يحقق الحد الأدنى من الكرامة للإنسان على أرضها، أقر أستاذ علم النفس في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية الدكتور عبد الله الصبيح بوجود "قدر من الإخفاق في تحقيق مقاصد الشريعة الإسلامية في ناحية التكافل الاجتماعي في العالم الإسلامي".

وأعاد ذلك إلى أسباب يرتبط بعضها ببعض "مثل محدودية أدوات تطبيق مفهوم الضمان الاجتماعي في الإسلام، وعدم نمو فكرة المجتمع المدني بالقدر الكافي في منظور المسلمين وقياداتهم السياسية".

ورأى أن واقعاً كهذا "لن يبرح يلقي بظلاله على المجتمعات الإسلامية، ما بقي الفساد الإداري والمالي مسيطراً، فنرى على سبيل المثال مؤسسات اجتماعية كبرى تهتم بالضمان الاجتماعي أو بفئة من الضعفاء كالأيتام لا تطور أدواتها وإن فعلت فإن جانباً من طاقتها يذهب لغير المحتاجين".

ومع أن فكرة الزكاة والضمان والتكافل جميلة كما يقول الصبيح " إلا أن جمالها سيظل يفقد قيمته في ظل غياب التشريعات والصيغ العملية والمراقبة الكافية لصرف الأموال لمستحقيها".

وإذا ما تجاوزنا معضلة الضمان الاجتماعي في صورتها العامة إسلامياً وعربياً إليها في السعودية، فإن هذه الأخيرة على رغم رفعها لسقف الضمان الاجتماعي أخيراً إلا أنها "لا يزال أمامها الكثير من المهمات الصعبة في هذا الاتجاه".

الفقر خارج من دائرة العار

وبعد حين من التغاضي عن التفاوت الهائل في مستوى المعيشة بين أفراد المجتمع السعودي كان العاهل السعودي الملك عبد الله عندما كان ولياً للعهد فاجأ الرأي العام السعودي بزيارته الأحياء الفقيرة في العاصمة الرياض قبل سنين ليقول للسعوديين: "نعم لدينا فقراء"، وأتبع الأمر بإنشاء صندوق لمكافحة الفقر خاطبت رسائله الإعلامية الفقراء في شوارع العاصمة الرئيسة قائلة: "الفقر ليس عيباً ولكن العيب أن تستسلم له".

والسعودية التي تنص المادة السابعة والعشرون من نظام الحكم فيها على أن "الدولة تكفل حق المواطن وأسرته في حالة الطوارئ والمرض والعجز والشيخوخة وتدعم الضمان الاجتماعي وتشجع المؤسسات والأفراد على الإسهام في الأعمال الخيرية"، اعتبر

المراقبون خطوتها تلك (الإقرار بوجود فقراء) العامل الأكبر في تقليص الفجوة بين الفقراء والأغنياء في بلد يعد المصدر الأكبر للبترول.

وإذا كان السعوديون كما يقول عضو مجلس الشورى عبدالعزيز الثنيان مثل غيرهم منهم أغنياء وفقراء، فإنه نفسه يرى فرضاً أن تعمل الدولة في بلاده "على توسيع قاعدة الشريحة الوسطى في المجتمع لتكون هي الغالبة مثلما كان سائداً قبل حرب الخليج، والدولة ماضية في هذا الاتجاه بضخها أموالاً كثيرة في بنك التنمية العقاري، والبنك السعودي للتسليف، وزيادتها في مخصصات الضمان الاجتماعي، ناهيك عن برامج الإسكان المتعددة في المدن والمحافظات والهجر، مثل مشاريع مؤسسة الملك عبد الله ووالديه للإسكان، ومشروع الأمير سلمان للإسكان الخيري، وغيرها".

ومع سخاء محسنين سعوديين من أمراء ورجال أعمال في تبرعاتهم للجهات الخيرية مثل "جمعيات البر". إلا أن كتاباً لا يزالون يشككون في أن كل السعوديين يخرجون زكاة أموالهم، كما تفرض عليهم الشريعة الإسلامية، "فالمملكة تشهد قفزة اقتصادية كبيرة، وتضم بنوكها سيولة نقدية هائلة لو تم إخراج زكاتها وإعطائها المستحقين لما بقي في البلاد فقير"، كما يقول أحدهم.

وفي نهاية المطاف فإنه على الرغم من تأكيد الإسلام على أن الضمان الاجتماعي حق ثابت كفله للفقراء والضعفاء فإن منهج

الإسلام نفسه يقوم على تشجيع الأفراد على الاعتماد على أنفسهم إلى أقصى قدر، دفع الرسول عليه الصلاة والسلام إلى مخاطبة رجل سأله أن يعطيه من الصدقة قائلا: "**لأن يحتطب أحدكم حزمة حطب على ظهره، خير له أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه**".

لكنه أيضا دعا إلى صلة الأرحام واعتبر الأسرة خط الدفاع الأول في الضمان الاجتماعي، فيما الدولة وبيت المال العام الخط الأخير. وفي الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم: "**ما آمن بي من بات شبعان وجاره جائع إلى جنبه وهو يعلم**"، ناهيك عن الأب والأم والأخ والعم!

نهاية غرام

ليس شيئاً اهتم به الدعاة والوعاظ السعوديون في أيام الصحوة الخوالي بمستوى تحذيرهم من إسبال الثياب وحلق اللحى والمعاكسات بين الفتيان والفتيات عبر الهاتف أو الأسواق ومواطن التجمعات النسائية.

وإذا ما تجاوزنا الجدل الذي أعقب ذلك العهد حول ما إن كان الدعاة في ذلك الوقت اهتموا بقضايا لم تكن جوهرية على حساب أخرى أهم وأخطر أم لا؟ فإن "المعاكسات" التي يقصد بها "ترويض الفتاة من جانب الشاب لإيقاعها في غرامه" أضحى نتاج الدعاة في التحذير منها غنياً على الساحة المحلية، ما بين كتاب وكُتيب ومطوية وشريط.

وتلتقي كلها عند تصوير الفتاة "شاة" "والشاب "ذئباً" يستخدم كل حيله الماكرة للتمكن منها وإلحاق الأذى بها، تحت ذريعة "وهم الحب ووعود الزواج الكاذبة" كما ينظِّرون!

وعلى الرغم من وقائع المعاكسات التي ترصدها هيئات الأمر بالمعروف والنهي ومراكز الشرطة في أنحاء البلاد إلا أن كتاباً

وليبراليين سعوديين ينظرون إلى القصص التي أغرق بها الوعاظ وسائلهم المشار إليها بعين التشكيك.

لكن الدعاة الذين تبارك وزارة الشؤون الإسلامية والجهات الرسمية أنشطتهم التوعوية لا يزالون يعتقدون أنهم كانوا يحذرون من أمور تشكل خطراً فعلياً خصوصاً بعد انضمام المملكة إلى ركب العولمة قبل عام ٢٠٠٠ لما سمحت بتركيب الأطباق الفضائية التي كانت ممنوعة، وبالانضمام إلى شبكة المعلومات الدولية (الإنترنت).

وبينما يعتقد كتاب سعوديون مثل حمزة المزيني بأن الوعاظ والمذكرين كما يسميهم أقحموا أنفسهم في كل شيء يمارسه المجتمع السعودي الذي لم يكن جديدا على الدين أصلاً، يرى الدعاة من جانبهم أن وقائع التجاوزات الأخلاقية التي لا يزال الدعاة يحذرون المجتمع من خطورتها، تشهد بأن القصص التي قيلت فيما سبق عن المعاكسات والجرائم الأخلاقية لم تكن مختلقة كما يدعي بعض الليبراليين الذين يقللون باستمرار من عمل الهيئات وتوعية الدعاة.

وقبل الخوض في النظرة الشرعية للمعاكسات أو الترقيم الفضائي والإلكتروني التي دفعت العلماء السعوديين إلى التشديد في رفضها، نورد نموذجاً لواحدة من القصص التي اكتسحت الساحة الإسلامية وأصبحت ومثيلاتها شاهداً على خطورة المعاكسات من وجهة نظر كل الرافضين لها.

قصة ترددت كثيراً

تقول إحدى المطويات التي عنونتها دار ابن الأثير التي أصدرتها بـ "لصوص الأعراض" إن أحد الذئاب البشرية وهو على فراش الموت يعترف لصديقه بما اقترفت يداه مع تلك الفتاة المسكينة فيقول: منذ عشرسنين كنت أسكن أنا ووالدتي بيتا يسكن بجانبه جار لنا من أرباب الثراء والنعمة، وكان قصره يضم بين جناحيه فتاة ما ضمت القصور أجنحتها على مثلها حسنا وبهاء ورونقاً وجمالاً، فألم بنفسي من الوجد بها ما لم أستطع معه صبراً فما زلت أعالجها فتمتنع، وأستنزلها فتتعذر وأتأتى إلى قلبها بكل الوسائل فلا أصل إليه، حتى عثرت بمنفذ الوعد بالزواج فانحدرت به إليها فسكن جماحها وأسلس قيادها فسلبتها قلبها وشرفها في يوم واحد".

وتمضي القصة كما ترويها الدار على لسان الجاني قائلاً: "وما هي إلا أيام قلائل حتى عرفت أن جنيناً يضطرب في أحشائها فأسقط في يدي وطفقت أقلب طرفي هل أفي لها بوعدها أم أقطع حبل ودها، فآثرت الأخير وهجرت ذلك المنزل إلى منزل آخر ولم أعد أعلم بعد ذلك من أمرها شيئاً"!

وفي سرد بديعي ممل أنهت الدار القصة بأن الفتاة بعد مرور مدة طويلة من هجران الشاب لها، بعثت إليه على عنوان بريده برسالة شجية، تذكره فيها بخداعه وخسته وكيف أنه قتلها هي وعشيرتها على حد سواء حينما سلبها شرفها.

وتنهي رسالتها الطويلة إلى عشيقها السابق قائلة: "ما كتبت إليك هذا الكتاب لأجدد بك عهداً أو لأخطب إليك وداً، فقد عرفت مكانك من نفسي، على أنني أصبحت على باب القبر وفي موقف وداع هذه الحياة خيرها وشرها، سعادتها وشقائها، وإنما كتبت إليك لأن لك عندي وديعة وهي (فتاتك)، فإن كان الذي ذهب بالرحمة من قلبك أبقى لك منها رحمة الأبوة، فأقبل إليها وخذها بجنبك حتى لا يدركها من الشقاء ما أدرك من قبلها".

الحب ليس ضرورياً!

ويعود رفض العلماء السعوديين للمعاكسات تحت أي مبرر إلى اعتقادهم أن "أي علاقة حب مع الأنثى خارج إطار الزوجية تعتبر محرمة".

ويقول أحد أبرز المهتمين بقضايا الشباب والفتيات في السعودية الدكتور محمد المسند إنه يأسف لإيحاء وسائل الإعلام للفتى والفتاة بأن "هذا الحب أمر ضروري في حياة كل إنسان، ولو كان خارج إطار الزوجية".

ومع إقراره بأن "الحب منه ما واجب كحب الله وما هو مباح وطبيعي كحب الأب والأم والزوج والزوجة" إلا أنه رأى كذلك أن في "الحب ما هو محرم، كحب الرجل للأنثى الأجنبية، وهذا النوع من الحب تترتب عليه أضرار دينية ونفسية وصحية واجتماعية وأدبية ومادية" حسب رأيه.

وعلى الرغم من الحضور التي اكتسبتها الوسائل البدائية للدعاة السعوديين المحذرين من المعاكسات إلا أن هذه الأخيرة جرت عولمتها فضائيا وإلكترونيا، وباتت البلوتوث والتشات والرسائل القصيرة على الفضائيات سوقاً رائجة للمعاكسات أو لـ "اصطياد الجنسين بعضهما".

غير أن وقائع التحرش والاعتداءات التي انتشرت على نطاق واسع بواسطة البلوتوث فيما عرف اجتماعياً بـ "فتاة الباندا" وفتاها برجس، وقضية "نفق النهضة" كانت إنذاراً قاسياً لمجتمع محافظ كالسعودي، دفعت العديد من الأسر إلى مزيد من الرفض للمعاكسات، ومزيد من محاولة السيطرة عليها. ويبقى الخير والشر في تدافع إلى يوم الدين.

عبث الصورة بالجسد الجميل

يختلف المراقبون لقضايا المجتمعات المحافظة ومن بينها السعودية في تفسير لهث الصورة المتكرر، نحو الأنثى للنهش من خصوصيات جسدها.

فبينما يحمل المتدينون وعلماء الشريعة وسائل الإعلام مسؤولية التجاوزات الأخلاقية التي يكون طرفاها "المرأة والرجل" بدعوى إثارتها لغرائز المراهقين، تعتقد شريحة أخرى من المجتمع يصعب تصنيفها تحت مفردة واحدة، أن " الخلل التربوي الذي تنجم عنه بعض السلوكيات المرفوضة اجتماعيا ـ بحسبانهم ـ جرى تسطيحه بتحميل المرأة شقوة الهفوة والغواية فيها".

ولهذا ترى الكاتبة السعودية بدرية البشر أن " المجتمعات المحافظة في أنحاء كثيرة من المنطقة خاضت تجربتها بصورة مختلفة عن تجربتنا في السعودية إذ اعتبرنا المرأة كائنا مختلفا ألبسناه الغموض، وفي الثقافة نردد أنه كائن ضعيف بلا عقل، فهي زارعة للفتنة ومدمرة للمجتمع، هذه الرسائل المتناقضة والصور لكائن واحد دليل على أن خللا يحدث في فهم المرأة، والسبب في

موروثنا الثقافي، ففي كل مرة يواجه المجتمع معضلة سلوكية أو تربوية نجد المرأة تصنف في إحدى نواحيها السلبية."

لكننا إذا تجاوزنا المحيط الخليجي إلى العربي والعالمي نجد القضايا الأخلاقية، وخصوصاً تلك التي تكون الصورة إحدى عناصرها تمثل إشكالية اجتماعية غير هينة، رغم جهود دول ومنظمات حقوقية في كبح جرائم العنف ضد المرأة، ومن بينها جرائم غسيل الشرف في أكثر من منطقة عربية وإسلامية.

إلا أن الفارق بين المجتمعات غير العربية والإسلامية أن الفضائح التي تنقلها الصورة وتوثقها بدلاً من أن تتحول إلى كابوس يطارد عوائل المتورطين بها في كل الأحول، تكون في أكثر الأحيان مادة فكاهة ومؤانسة، تحصد بها الصحف والمجلات مبيعات هائلة، وخصوصا عندما تتعلق بالمشاهير في السياسة والفن.

وهذا النمط من التكيف مع الفضائح المصورة والمنشورة (صحافياً) وإن عده البعض حضاريا إلا أنه حسب علماء الشريعة لا يعدو كونه "سقوطا أخلاقيا واجتماعيا، بوجوه متعددة، أدى إلى انتشار الجرائم واللقطاء والأمراض الجنسية الخطرة" بين تلك المجتمعات المتقدمة.

ورغم كل هذه التفسيرات يمثل شغف تصوير أو مشاهدة "الوقائع الجنسية" ظاهرة عالمية، تقلق الأجهزة الأمنية والتربوية لما ينشأ عنها من سلوكيات غير سوية، وهذا ما جعل دولا كالسعودية والإمارات -مثلاً- تحظر المواقع الإباحية على خطوطها المحلية في

الشبكة العالمية "الإنترنت"، إلا أن الإحصاءات لا تزال تشير إلى أن هذا النوع من المواقع يحتل نسبة عالمية بين مواقع الشبكة الإلكترونية، وروادها في ازدياد.

ومع صعوبة الجزم بما نشرته إحدى المواقع الإلكترونية وهي تتحدث عن تقارير اجتماعية تشير إلى أنه فيما يمارس الفتيان تصوير علاقاتهم الجنسية بدافع الاحتفاظ بها للذكرى أو تهديد الطرف الآخر بها عند تراجعه، يوثق الكهول وقائعهم الجنسية بدافع الإثارة والإدمان.

إلا أنه في مواقع الفتاوى الشرعية على الشبكة العالمية نفسها نجد عشرات الفتاوى لأزواج في خريف عمرهم يسألون عن جواز مشاهدة أفلام جنسية لإثارة غرائزهم الواهنة(!!) ومعروف شكوى المرأة المصرية إلى الأزهر قبل حين عندما أصر زوجها على مشاركته متعة الفرجة على الأفلام الجنسية تمهيدا لمحاكاتها!

وفي موقع الإسلام اليوم الذي يشرف عليه الداعية السعودي سلمان العودة سأل أحدهم عما إن كان تصويره لممارسته مع زوجه لحياتهما الخاصة أمر مشروع، بهدف إثارة حماسته عند اللزوم!

وحتى تكف التقنية عن طردها غواية الأنثى وتمرد الرجل، تبقى المرأة الضحية إن كانت الجانية أو المجني عليها والهتاف دائماً:

"لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى

حتى يراق على جوانبه الدم"

العنوسة بين الدعاة

هل أضحى الشغف بالنساء نكتة ساخرة تطارد المتدينين "وعلماء الشريعة" خصوصا؟.. غمز هنا، وحكاية هناك، تلاحق البعض. يشاع أنه في ناحية النساء يُبلي بلاء حسنا، لمّا شاهدوه يجمع بين اثنتين أو ثلاثة، ناهيك عن صاحب الأربع. يوصف بطلاً بين محيط، ومتلاعبا أو شهوانيا عند آخرين!

كان المفترض أن يجري الحديث في إطار العنوسة بين العلماء، وما إن كانت ظاهرة بينهم مثلما هي بين المدرسات والممرضات في السعودية. هل هي أقل. أكثر. إلا أن إطلالة سريعة على بعض مواقع الزواج، واتصالات متعددة على خطابين، ومأذونين، أسفرت عن أن شرائح المتدينين والعلماء الشرعيين، في العرف الاجتماعي "أكثر فتكاً بالنساء" كما يُدَّعى. وبات مؤكدا أنهم أكثر جمعاً بين الجنس اللطيف، ولكن بالحلال.

تقول الخاطبة "أم بدر" إنها لا تشاء توزيع الراغبين في الزواج من حيث انتمائهم العلمي والديني، لكنها لاحظت أن "المتدينين الرجال منهم والنساء أكثر جدية في البحث عن الزواج، بينما يحدث لدى أضدادهم سلوكيات في أثناء البحث عن فرصة زواج، تجعلنا نشك في جديتهم".

وهل تشكل فئات طلبة العلم نسبة أعلى في طلب تعدد الزوجات بين المتقدمين لديها، تقر أم بدر، بأن الفرضية صحيحة، وأنهم " أكثر الباحثين عن التعدد"، غير أنها تفسر ذلك بأنهم "يرغبون الحلال وحده، وجادون" حسب تعبيرها.

أما الخاطب (أبو محمد) وسط الرياض، فنفى أن يكون لعامل المشيخة أو التدين صلة بالرغبة في التعدد بين الزوجات، وإنما أعاده إلى "ظروف الشخص الباحث عن الزواج، فبطبيعة الحال الناس مختلفون، تجد منهم فرداً يقتنع بشريكة واحدة، تكون أماً لأولاده، ورفيقة له في مسيرة الحياة، وتجد آخر، يجمع بين اثنتين فأكثرو يبقى كذلك مدى الحياة، وبين هذين شخص ثالث، يمل سريعا فيتزوج ويطلق حينا بعد آخر".

أبو محمد لا يرى أن شيئا من ذلك يشكل معضلة إلا إذا اقترن بسوء التعامل مع الطرف الآخر (الزوجة) أو يكون على حساب قيم وعادات المجتمع، "عندما يرغب الرجل الزواج بامرأة أخرى، لا أرى في ذلك مشكلة، إلا إذا كانت ظروفه المادية صعبة، أو أنه سيئ الخلق".

يبحث عن سمراء

وعدد أصنافا من الحالات التي ترد إليه"تختلف مبرراتهم في البحث عن الزواج، فمنهم من يقول يبحث عن العفاف، ومن يقول زوجته مريضة، أو كبيرة في السن، أو يبحث عن امرأة رشيقة لأن

زوجته سمينة، والعكس صحيح، كذلك يوجد من يبحث عن سمراء لأن زوجته بيضاء والعكس أيضا صحيح".

أما الفئات التي تتقدم إليه راغبة في الزواج، فقال عنها "من كل فئات المجتمع يتردد علي طالبون للزواج، العادي والمسيار، ولم ألحظ أن فئة معينة ترجحت على فئة أخرى، ولكن الوصف الذي يجمع بين الكل أنهم قادرون على دفع المهر والمصروف الشهري للزوجة إن كان النكاح مسياراً، وتأمين بيت لها إن كان زواجاً عادياً".

ومن جهة أخرى يختلف مأذونو الأنكحة حول سؤال ما إذا كان العلماء والمتدينون أكثر المعددين بين النساء وتفسيرهم لذلك، فيؤكد المأذون نايف بن محمد الناصر أن "العلماء والدعاة وطلبة العلم في السعودية أكثر الفئات تعديدا للزوجات، لأن ذلك سنة النبي ﷺ والعلماء الذين عزفوا عن الزواج قليلون جدا". مع ذلك لا يؤيد الناصر القول بأن شغف الدعاة وطلبة العلم بالنساء حملهم على التفريط في واجباتهم مثل الدعوة والإصلاح ونحو ذلك "هذا الاتهام يكذبه الواقع، نجد أكثر العلماء والمصلحين متزوجين باثنتين فأكثر، ووالدي رحمه الله عالم شرعي، كانت لديه ثلاث نساء، ولم تشغله عن القيام بمسؤولياته، كعالم".

ابن باز لم يعدد ولا ابن عثيمين

لكن المأذون الآخر منصور العضيلة رفض أن تكون أكثرية المعددين بين علماء الدين "وإنما عينات قليلة من العلماء هي التي

تعدد بين الزوجات، والمشهورين منهم لا نجدهم يعددون بتاتا، مثل الشيخ عبد العزيز بن باز (مفتي السعودية الراحل) والشيخ محمد الصالح العثيمين (عالم سعودي راحل) لم يتزوجوا غير واحدة"، كما أن العضيلة يرى أن التعدد "يشغل العالم عن القيام ببعض مسؤولياته".

ومن ناحيته يقر المأذون الشرعي عبد الكريم المالكي بأن "العلماء والدعاة وطلبة العلم أكثر الناس تعدداً بين الزوجات" ويفسر ذلك بأنهم "أكثر حرصاً على اتباع سنة النبي ﷺ، ولأن الأصل هو التعدد، فإذا خشي المرء عدم العدل، اقتصر على الزواج بواحدة" على حد رأيه.

وفي شق التهم الموجهة إلى المكثرين من التعدد سألت "الحياة" القاضي في الأحساء الدكتور قيس المبارك، عن صحة المزاعم بأن العلم لا يجتمع مع كثرة الزواج فأضاف " يؤثر من كلام إبراهيم بن أدهم ـ رحمه الله ـ قوله: (يضيع العلم بين أفخاذ النساء)، وهي كلمة صحيحة المعنى، فيمَن يَتلهَّى بالمُكْثِ مع النِّساء حتى يُشغل عن العلم وعن معالي الأمور".

وتابع: "وهذه الكلمة مُتصَوَّرةٌ في الزوج مع زوجةٍ واحدةٍ فقط إذا استأثَرَتْ به وشَغَلَتْهُ بها عن الناس، ومُتصَوَّرةٌ كذلك في حقِّ المُعَدِّد بالحلال بأن تكون له زوجة أخرى أو أكثر، ومُتصَوَّرةٌ كذلك في المعدِّد بالحرام بأن يسلُك السُّبل المحرَّمة بالعلاقات غير المشروعة".

وزاد "أما الآية الكريمة (يا أيُّها الَّذينَ آمنُوا لا تُلهِكُمْ أموَالُكُمْ ولا أولادُكُمْ عَنْ ذكرِ اللَّه) فقد ذكر المفسرون أن فيها تحذيراً من الله تعالى للمؤمنين من أن تشغلهم أموالهم وأولادهم عن طاعة الله وعن أداء فرائضه. وليس فيها دلالةً على أن كثرة الزواج يكون دافعاً إلى قلة الإقبال على العلم، كيف وقد أباح الله للإنسان التمتع بنِعَمِهِ سبحانه وقد أكرم الله الإنسان فهيّأ له من الطيِّبات ما لا يصل إليه الحيوان، ونثَرَها له وأباح له التمتُّعَ بها. فقد قال الله تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُواْ كُلُواْ من طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ وقال تعالى:﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللّهِ الَّتِيَ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾.

وحول القول بتشكيل التعدد بين العلماء والدعاة في السعودية ظاهرة يقول" التعدد بين الزوجات ظاهرة طبيعية تعيشها جميع المجتمعات البشرية، غير أن الشريعة الإسلامية رعْياً منها لمبدأ العدل وحُسن العِشرة بين الزوجين اشترطت في التَّعدُّد أن يكون من باب الزواج وليس من باب آخر، ثم قصَرَتْهُ على أربعٍ فقط، من حيث فتحت كثيرٌ من المجتمعات التعدُّد ليشمل ما يشاء الرجل تحصيله من النساء من حيث العدد ويَشمل كذلك أيَّ بابٍ شاء خارج قانون الزواج".

الأغنياء والفقراء أكثر تعددا

وأضاف " أما ما ذكرته من وجود التعدُّد عند بعض المتديِّنين، فهو ظاهرة طبيعية، فالتعدُّد موجود في المجتمعات الفقيرة وموجود

عند الأثرياء، فإذا كان وفرة المال عند الأثرياء قد سهَّل لهم سبيل التعدُّد، فإن وفرة الوقت عند ذوي الدَّخل المحدود من المتديِّنين قد سهَّل لهم كذلك سبيل التعدُّد، وليس لهذا من معنىً إلا أن هؤلاء المعدِّدين من المتديِّنين قد دفعهم للتعدُّد وجود الفراغ واليُسْر وبُعْدُهم عن مجالس السوء، مع الرَّغبة في العِفَّة بِسلوك السبيل المباح، والتاريخ يُحدِّثنا عن السَّواد الأعظم من العلماء وأنهم لم ينصرفوا عن الزواج، وإن وُجِدَ منهم قِلّةً لَمْ تتزوَّج وأغلبها لِظروف خاصَّة بهم حالَت دون زواجهم".

ومع ذلك فإن المبارك لا يرى "ظاهرة التعدُّد منتشرة بين العلماء، بل إن انتشارها بين المتديِّنين مِمَّن حفظهم الله مِن مجالس السوء ممن تهيَّأ له المال والوقت".

الجوال بديلاً عن الرجل في ثرثرة النساء!

عدد قليل من الناس أو صفر يتشرف بنعت "ثرثار"، غير أنه من الناحية الفعلية بين كل خمسة منا "ثرثار". قطعاً ليس هذا دراسة علمية أو إحصاء موثق بالقدر الذي هو انسجام مع التعريف الذي يرى أن "أي كلام غير نافع يعدّ ثرثرة".

لكن أصل المفردة التى أضحت في الثقافة العربية رديفة الأنثى والمتملقين من الشعراء، بات لها في عالم اليوم أكثر من فائدة، ومجال استخدام من جانب المرأة والرجل على حد سواء.

على أن النساء خصوصاً لا يرضين بوصفهن منتجات للثرثرة أكثر من الرجال، فالاختصاصية في علم النفس والأعصاب الدكتورة سعاد يماني تجزم أن "استهلاك الكلام بالكثرة الذي نعبر عنه نحن العرب بـ "الثرثرة" ليس حكراً على الأنثى دون الرجل، فهو سلوك من دواعي الفراغ، وربما لكون نصيب المرأة الشرقية من هذا الأخير أحيانا كثيرة، أصبح البعض يربطه بالنساء".

غير أن يماني التي تترأس "مجموعة دعم فرط الحركة وتشتت الانتباه"، لا ترى الثرثرة عرضا يصنف ضمن فرط الحركة لدى

الأطفال "إلا إذا تجاوزت الحدود الطبيعة"، وفي هذه الحالة "يمكن علاجها كسائر أعراض فرط الحركة، التي يعاني منها الأطفال في المراحل الأولى من نموهم قبل المراهقة".

الثرثرة لغة وطباً

والثرثرة التي يعرفها اللغويون كما في الصحاح بأنها "كثرة الكلام، يقال رجل ثرثار ومهذار"، على الرغم من الموقف الشرعي منها في قول النبي ﷺ: "**أبعدكم مني يوم القيامة الثرثارون المتفيهقون**"، وقوله: "**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت**"، إلا أن هذه الخصلة تجاوزت كونها استهلاكاً للوقت إلى وسيلة علاجية، وطريقة جديدة مبتكرة لترويج السلع.

ففي مركز البحوث الاجتماعية البريطاني بأكسفورد قام الخبراء بدراسة جديدة أظهرت أن الثرثرة المحدودة مفيدة، فهي تطيل العمر وتغذي الروح وتساعد على التقارب مع الآخرين.

الخبراء وجدوا أن الأشخاص الذين يمارسون هواية الثرثرة دون أن يشعروا بالذنب يملكون علاقات اجتماعية كبيرة وغالبا ما يعيشون نمط حياة صحياً لأن حديثهم عن الآخرين يحرر مشاعرهم وأحاسيسهم ويقلل من التوتر والكبت والغيظ الذي يسبب الأمراض.

وأظهرت دراستهم التي نشرتها صحيفة "النهار" اللبنانية، أن "الثرثارين نادرا ما يتعرضون لأمراض القلب والاضطرابات

العصبية واليأس والكآبة لأن الثرثرة تشجع على مشاركة الأحاسيس وما يدور في الذهن والوجدان فتقرب من الآخرين وتشعر الإنسان بالراحة".

وتأتي دراسة كهذه في وقت أشارت فيه دراسات سابقة إلى أن "حياة الإنسان يمكن أن تصبح أكثر سعادة وأطول إذا كانت مرحة وبعيدة عن المنغصات النفسية والأمراض، كما بين بحث على دراسة دامت خمس عشرة سنة حول الهرم وداء الزهايمر أن السعادة تطيل العمر، ويقول الباحثون في هذه الدراسة إن الأفكار السعيدة والمشاعر الإيجابية في مرحلة مبكرة من الحياة قد تساعد على الوقاية من الأمراض وقد تطيل العمر أيضاً".

الثرثرة مؤشر للسعادة والكآبة جميعاً!

ومع أن البحث الأخير لم يشر إلى "الثرثرة" بوصفها مؤشراً للسعادة أو الكآبة، إلا أنها من المنظور الاجتماعي يمكن أن تصبح مؤشراً للاثنين، حسب الحالة.

وهذا ما دفع أستاذ علم الاجتماع في جامعة الملك سعود الدكتورة آمال عبد الرحيم، وهي تتحدث مع "الحياة" إلى الجزم بأن "النظرة الاجتماعية إلى الثرثرة بغض النظر عما إذا كانت ذميمة أو حميدة مرتبطة بـ "الثرثار"، والظروف التي يمر بها والمحيط الذي هو فيه، فمثلا نرى البعض يمتهنون الثرثرة في المجالس والمنتديات العامة رغبة في الحضور والوجود الاجتماعي

بغض النظر عن الآراء التي يدلي بها أو الأحاديث التي يخوض فيها".

وأجزاء من هذه الشريحة تقوم بذلك في ظن آمال أحياناً "للتعويض عن نقص داخلي مسيطر، أو لفراغ يسبق حضورها المنتدى أو المجلس، فظاهرة الفراغ على سبيل المثال بين السيدات هي ما يدفعهن إلى أحاديث غير مبررة خالية من أي معنى أو عديمة الفائدة في اللقاءات بين صنوف من النساء قديماً وحديثاً".

أما موضوعات الثرثرة المعتادة اجتماعياً، فهي أيضاً في نظر آمال عبد الرحيم مذاهب وألوان، "تتأثر بالأعمار والاهتمامات، فربات البيوت -مثلاً- يجلسن ساعات طويلة لا يتحدثن إلا عن الطفل العنيد والزوج الكريه أو الحبيب وابنة فلان الجميلة أو القبيحة، بينما تشاركهن النساء العاملات في هذا الجزء من حديثهن إضافة إلى مشكلات عملهن وطموحاتهن في المستقبل".

وهل صحيح أن الرجل هو صاحب الحضور الأبرز في ثرثرة النساء؟ لا تنكر ذلك آمال إلا أنها ترى "الأسهم السعودية في الآونة الأخيرة اكتسحت ثرثرة النساء وأضحى الرجل يأتي تابعاً، بعد أن كان الذي يحتل صدارة ثرثرات النساء غالباً".

بأي شيء يثرثر الشباب من الجنسين؟

ويلتقي الشبان والفتيات الثرثارون عند اهتمامات متقاربة يستحوذ عليها "الحديث عن الجنس الآخر". فالشاب محمد

(٢١عاماً) لا تذهب ثرثرته مع أصدقائه بعيداً عن "فتاة أحلامه، ومغامراته العاطفية، والاتصالات، والشات، وأيام الامتحانات الجامعية، وربما الأسهم إذا كان أحد الطرفين مسهماً في السوق المالية، غير التكنولوجيا بوجه عام تحتل أكثر الوقت".

أما سلوى الخزرج فإنها لا ترى ثرثرة ابنتها مع صديقاتها تخرج كثيراً عما أشار إليه الشاب محمد، إذ تقول لـ "الحياة": أستمع إلى الحديث والثرثرة التي تدور بين ابنتي وزميلاتها فأسمع هموم المدرسة، والتعامل مع المعلمات، وكيف يحصلن على الإعجاب من جانب النساء والذكور، وكيف يحظين باهتمام المجتمع وبأزواج يخطبونهن، إضافة إلى الأزياء والموضة".

الثرثرة ليست دواء!

وفي جانب علم النفس تنفي الاختصاصية النفسية الأميرة مها آل سعود في اتصال هاتفي مع "الحياة" أن تكون الثرثرة مصنفة ضمن العلاج السلوكي والنفسي الذي ينصح به أطباء علم النفس، على حد علمها.

ومع جزمها بأن "الثرثرة لا يمكن أن تكون علاجاً" إلا أنها أقرت بأن "أطباء النفس يعتبرون (التفريغ) - الذي ترفض أن يسمى ثرثرة - أحد أنماط العلاج النفسي وإن لم يكن علاجاً قائماً بذاته".

وأشارت إلى أن طبيب النفس تختلف نظرته إلى الثرثرة داخل العيادة وخارجها، "ففي العيادة ينظر إلى الشخص الذي يثرثر أو

يتحدث أمامه بإنصات واهتمام، لاعتبارات مهنية أهمها أن الشخص يأتي إلى العيادة النفسية ويقول كل ما في نفسه ويؤمن تماماً أن سره أو حديثه في مكان آمن فينفس عما بداخله، أما خارج العيادة فإن نظرة طبيب النفس إلى الثرثرة تختلف حسب نوع "الثرثرة" والموضوعات التي تتناولها".

الشقراء والورقة الزرقاء!

"ابتسامة لطيفة أو قوام رشيق، قد يخفي وراءه عالماً من الأهوال، مثلما قد تكون الورقة الفتانة (الدولار) مجرد سفيرة نوايا حسنة لنهايات حزينة". هكذا بدأ ناشط حديثه، وهو يحاول تبسيط الوجه القبيح لشهوة ساعة تنتهي بشقاء الحياة كلها. وسواء كانت شهوة مال أو "جنس" فإن النتيجة واحدة.

وفي وقت تشير فيه الإحصاءات السعودية إلى أن نسبة تجاوزت التسعين في المئة من الإصابات حدثت بعد اتصال جنسي خارج إطار الزوجية، يحمل البعض، الخطاب الديني المسؤولية العظمى في حض الناس على التزام سلوك "العفة".

وترى عضو الجمعية الوطنية لحقوق الإنسان في السعودية سهيلة زين العابدين حماد أن مؤشرات الإحصاء، هتكت صورة المثالية التي يدعيها بعض الأفراد في التزام المجتمع واستقامته "خطير جداً أن يكون ارتكاب الفواحش أبرز سبب لانتشار الوباء في بلد مناهجه تشهد فيها المواد الدينية كثافة كبيرة، ويغلق المحال لأداء الصلاة، إمعاناً في حمل الناس على التزام الجادة. يجب أن نسأل

أنفسنا بصراحة ما الدوافع وراء ارتكاب أولادنا للفواحش؟ أنا شخصيا أرى أن الخلل في المقام الأول تربوي، وفي الثاني ديني".

وأوضحت ذلك بأن "الأسرة أصيبت بشرخ كبير بسبب عدم استيعاب كثير من أولياء الأمور لدورهم التربوي على النحو السليم، فدائما تخوف الشبان من الله وعقابه وناره، في وقت لم تزرع فيهم محبته ومراقبته، كما أنها أعطت للذكور وكالة بفعل ما يشاؤون، حتى إن بعضهم عندما تقصر إمكاناته المادية أو ارتباطاته عن السفر من أجل المتعة الحرام يزني بمحرمه! ولدينا في الجمعية حالات يشيب لها الرأس تكشف إلى أي مدى تعاني أخلاق أبنائنا من ترد خطير".

وتعتقد أن الخطاب الديني من جانبه عزز هذه المسألة في برامجه "التي تركز على أن المرأة فتنة، وأن على الرجل أن يحذر منها، وأنها محل للغواية، ما جعل الشاب يتصور المرأة وعاء لتفريغ شهواته في الحلال أو الحرام فقط، وسط غياب شديد للنظر إلى خصائصها الوجدانية والإنسانية" على حد تعبيرها.

هل يغض الرجال أبصارهم؟

وضربت حماد مثلاً على تناقض ذلك الخطاب مع المسلك الإسلامي الذي تخصصت فيه باكراً قبل اهتمامها بالشؤون الحقوقية، وتقول: " قليلاً ما نسمع خطيباً أو واعظاً يدعو الرجال إلى غض البصر، بينما المرأة ينهونها حتى عن كشف وجهها الذي أبيح لها (في بعض المذاهب)، وربنا عز وجل قدم الرجال على

النساء في الدعوة إلى غض البصر في قوله: ﴿**قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ...**﴾، وبعدها جاء قوله: ﴿**وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن**﴾. وقالت إنها عارضت عالماً دعا النساء في حملة حج كانت فيها إلى تغطية وجوههن، بحجة أن الرجال إذا نظروا إليهن يعود الإثم على النساء!

وأشارت حماد إلى أن المطلوب هو: " تربية الأولاد على العفة ومجاهدة النفس، وقوة الإرادة لمقاومة الشهوات، حتى يستطيعوا تنزيه أنفسهم من الآثام والأمراض، ومن أجل أن يقابلوا ربهم وهو راض عنهم. وبما أن المجتمع شريكاً في أسباب إصابة بعض أفراده بهذا الوباء (الإيدز)، بسبب إخفاقه في التربية، فإن عليه أن يتقبلهم وأن لا يحرمهم حقوقهم العامة والخاصة، فنحن كمجتمع وجامعات ومساجد شركاء لهم في الخطيئة، كما أنه لا بد من توعية الزوجات بصراحة عن الكيفية التي تمكنهن من حماية أنفسهن من هذا المرض، عبر استخدام الوسائل المتوفرة حاليا".

النساء أكثر عفافاً!

وفي جانب المرأة التي تركز حماد على قضاياها أكدت أن "معظم النساء لا يدفعهن إلى الوقوع في حبال الرذيلة إلا (الفقر)، ولذلك نحن طالبنا في مؤتمر في القاهرة بتوفير أساليب عيش كريمة للفتيات اللاتي تلجئهن الحاجة إلى ممارسة الرذيلة".

وأضافت: "من الصعب أن ندعي أن المرأة يمكنها الصمود أمام الفقر والإغراء معاً، وفي الجمعية اتصلت بي امرأة وقالت إن وزارة محددة ساومها أحد رجالها على عِرضها حتى تحصل على مساعدته، وأخرى قالت إن صاحب الوظيفة التي تقدمت لها رحب بها، وتسلمت مهمتها، إلا أنها اكتشفت فيما بعد أن أحد أثمانها، تلبية طموحاته الجنسية، فاستقالت منها".

وخلصت في هذا المحور إلى ضرورة " تأمين حد الكفاف للمرأة حتى لا تدفعها الحاجة إلى ممارسات غير أخلاقية، تعرض دينها وصحتها للخطر".

وكان تقرير للأمم المتحدة شدد على أنه لا أمل في السيطرة على الوباء "إن لم توضع النساء في صلب التحرك" وإن لم يكافح التمييز الذي يقعن ضحيته غالبا ويحرمهن من التعليم والعناية الصحية والتوظيف.

فوبيا "الإباحية"

ويجيء اليوم العالمي للإيدز هذا العام ٢٠٠٦، وقد أوشكت جمعية وطنية لمرضى الإيدز في السعودية على الخروج إلى النور، مما يعد "خطوة إيجابية في التعامل مع الشريحة التي لا تزال تعاني نبذاً اجتماعياً، وتمييزاً من الناحية الحقوقية، لأسباب شتى" كما يشير رئيس الجمعية التي لم تنته إجراءات إشهارها بعد، واستشاري الأمراض المعدية في مستشفى الملك فيصل التخصصي الدكتور عبدالله الحقيل.

وكان حذر مما أسماه تأخراً في نشر الثقافة الجنسية بين أفراد المجتمع السعودي، وسط زيادة سنوية مخيفة لعدد المصابين بالإيدز بلغت أخيراً ١٥ في المئة، في وقت سجلت فيه نسب انتشار الوباء تراجعاً في بعض الدول، وصل ٤٠ في المئة!

ويركز الحقيل على الناحية الحقوقية للمرضى إلى جانب التوعية التي رأى أهمية "احترام الثوابت الدينية فيها والموروثات الاجتماعية في الجوانب المتعلقة بالجنس، مع الأخذ بالاعتبار حال الواقع، وتوجيه رسالة توعية واضحة بطرق الوقاية، بسبب شيوع "فوبيا الإباحية" التي أخذت تتناقص، بفضل الانفتاح الإعلامي".

لكنه أشار إلى أنه ما عاد يجد معاناة كبيرة في الكتابة عن وسائل توقي الإصابة بالفيروس جراء الاتصال الجنسي مثل السابق قائلاً: "حين كتبت مرة عن استخدام الواقي في الاتصال الجنسي، واجهت سيلاً من الرسائل والشتائم التي اتهمتني بالدعوة إلى الإباحية"!

ومهما تباينت المسؤوليات يظل وباء "الإيدز" خطراً، ينتهز في الإنسان أضعف لحظاته مع ذاته، أمام فتنة جسدٍ أو دولار، ولكن "عند الله تجتمع الخصوم".

تقارير فكرية

إعادة كتابة التاريخ ضرورة أم سفه؟

هل يحتاج التاريخ السعودي إلى إعادة قراءة؟

جاهلية الزواج

حيْونة السياحة

وسائل للنصب والشفاء معاً

التدين التايواني

بيعة رضوان جديدة

أم القضايا: سد الذرائع

الخطاب النسائي مهدد بالسطحية وسلطة الذكور

نقاش حول الدعوة السلفية

أزهر سعودي يتجه نحو التحديث

الخوف من التيسير

إعادة كتابة التاريخ ضرورة أم سفه؟!

يلحظ المراقب جدلا غير محسوم بين المؤرخين العرب والمسلمين عما إن كان تاريخ العرب قبل الاسلام وبعده يحتاج إلى "إعادة كتابة" أم لا .. حتى بلغ الحماس بأحد زعماء " الإخوان" هو الدكتور محمد قطب؛ حدا جعله يدعو إلى كتابة التاريخ البشري كله مجددا "من زاوية النظرة الاسلامية التي تقيس الإنجاز البشري بالمعيار الرباني" على حد تعبيره.

وإذ يذهب الإسلاميون إلى هذا التوجه في المطالبة بإعادة كتابة التاريخ ينحى القوميون والعروبيون إلى مقصد آخر، فهم يعتقدون أن " تجاهل الحضارات قبل الإسلامية أثّر سلباً وشوه كذلك الرؤية الواقعية للحضارة العربية والإسلامية".

ودفع ذلك موقع "العراق للجميع" على الشبكة الالكترونية إلى اتهام جميع المؤرخين العرب والأجانب بالاتفاق على القطع التعسفي للأصول الوطنية العريقة للحضارة العربية والإسلامية عما تلاها "فهم ـ كما يقول الموقع ـ يوهمون القارئ أن الجذور الأولى لحضارة العرب لا تتعدى أصول البداوة وشعر المعلقات وسجع الكهان، وما

سوى ذلك جعلوه أجنبيا، فالفنون فارسية، والتصوف هندي، والفلسفة إغريقية "!!

وطرف ثالث معاصر يضع الدعوتين في سلة واحدة ويرى أنها "ضرب من السفاهة" كما هو اعتقاد المؤرخ السوداني الدكتور عزالدين عمر موسى من جامعة الملك سعود في السعودية.

وإذا ما عدنا إلى ما علل به كل طرف رأيه الذي ناصره نجد الدكتور محمد قطب في كتابه (كيف نكتب التاريخ الاسلامي) يعدد ملاحظات تجعله يلح على ضرورة إعادة كتابة التاريخ الاسلامي.

ويقول: "إذا نظرنا إلى المصادر الإسلامية القديمة، نجد فيها ذخيرة ضخمة من الأخبار والوقائع والروايات، تصلح زاداً للمتعمق، ولكنها - بصورتها الراهنة - لا تصلح للقارئ المتعجل الذي يريد خلاصة جاهزة ممحصة، سهلة الاستيعاب والهضم، وإذا نظرنا، من ناحية أخرى، إلى معظم المراجع الحديثة المتأثرة بالمنهج الاستشراقي، نجدها مكتوبة بصورة جذابة مغرية بالقراءة من ناحية الشكل، ولكن عيبها من الناحية المنهجية أن أغلبها بعيد عن الأمانة العلمية الواجبة، ملون تلويناً لتحقيق هدف معين، تكنّه صدور لا تحب الخير لهذا الدين".

وسواء أكانت تلك المراجع في نظر قطب من تأليف المستشرقين مباشرة، أو من تأليف تلاميذهم، فإن "هذا العيب المنهجي الخطير يجعل مراجعهم غير صالحة للاستمداد منها،

ويجعل إعادة النظر فيما تناولته من وقائع وتفسيرات، أمراً بالغ الأهمية".

أما العيب الرئيس والمشترك بين تلك الكتابات كما يقول، فهو "التركيز على التاريخ السياسي للمسلمين على حساب بقية مجالات الحياة الإسلامية: العقَدية والفكرية، والحضارية، والعلمية، والاجتماعية.. إلخ، ما يعطي صورة مشوهة ممسوخة! وذلك أن تقسيم التاريخ إلى مراحل سياسية، والحديث عن كل مرحلة، كأن هناك حدوداً فاصلة في مجرى التاريخ، منهج يقطع التواصل التاريخي بين أجيال هذه الأمة، كأنما لم تكن أمة واحدة متصلة، وكأنما لم تكن بالذات هي (الأمة الإسلامية)". إلى نهاية ما ذكره من المبررات.

ولم يكن قطب الوحيد المنتصر لهذه الرؤية، فأعداد كثيرة من الإسلاميين يرون التوجه نفسه، وإن اختلفوا في التبرير، فعند نقل الكاتب السعودي عبد الله بن ناصر الحبيب حديث قطب المشار إليه ليسند به مطالبته بإعادة كتابة التاريخ الاسلامي، أيده هو الآخر، الكاتب المصري الدكتور خالد كبير علال، إلا أن هذا الأخير اعتبر المبررات التي عدها الحبيب نقلاً عن قطب منطلقاً لحجته، ثانوية.

إذ إن علالاً يعتقد أن المسوغات لإعادة كتابة التاريخ أكبر من ذلك، ويقول في "مجلة عالم السنة": إن هناك ثلاثة أسباب رئيسة تدعونا إلى إعادة كتابة تاريخنا الإسلامي؛ أولها أن قسما كبيراً

ومهماً من تاريخنا قد تلاعبت به الأهواء والعصبيات، والتحزبات السياسية والمذهبية، نجد آثارها جلية في روايات الطبري المتناقضة، وفي ما دوّنه اليعقوبي في تاريخه، والمسعودي في مروجه، والمؤلف المجهول في كتابه: الإمامة والسياسة المنسوب لابن قتيبة، وغيرهم من المؤرخين. فوضعية كهذه لا يمكن قبولها، ولا يصح السكوت عنها، وثانيها، أن كثيراً من أعيان الإخباريين والرواة، الذين رووا تاريخنا الإسلامي، في القرنين الأول والثاني الهجريين وما بعدهما، هم من أهل الأهواء والبدع، الذين يتعمدون الكذب ويتخذونه دينا، أمثال: محمد بن السائب الكلبي، وابنه هشام، ونصر بن مزاحم، وأبومخنف لوط بن يحيى، ومحمد بن عمر الواقدي، وغيرهم من الرواة الكذابين المؤسسين لمدرسة الكذابين في رواية التاريخ الإسلامي وتدوينه".

ويسائل عما إن كان معقولاً "أن نقبل تاريخا كتبه هؤلاء ومن على شاكلتهم، دون أن ننقده ونمحصه"؟!

وينتهي إلى السبب الثالث، الذي رآه بسبب كون "تاريخنا الإسلامي، لم يدوّن وفق منهج علمي نقدي شامل، كما دُوّن الحديث النبوي، فإن علماءنا قد جدوا واجتهدوا، في جمع السنة النبوية وتحقيقها وفق منهج شامل صارم دقيق، لكنهم عندما كتبوا التاريخ تركوا ذلك المنهج جانباً، ودوّنوا الحوادث كما وصلتهم، فغلب عليهم الجمع والحشو، دون تمييز بين صحيح الأخبار وسقيمها في غالب الأحيان؛ لذا علينا نحن اليوم أن نتولى إعادة كتابته وفق منهج علمي صارم يجمع بين نقد الإسناد والمتن معاً".

أما العروبيون فآمنوا بضرورة "إعادة كتابة التاريخ العربي الحضاري والسياسي والروحي والديني... بحجة أن "الفصل القسري الذي جرى بين التاريخ العربي الإسلامي والتاريخ ما قبل الإسلامي قد ورط العرب ـ كما يقولون ـ في عملية فصل جغرافي قطري بين تواريخ البلدان العربية المتنوعة؛ فبالنسبة لكل مواطن عربي هنالك تاريخ واحد فقط مشترك بين العرب جميعهم، هو التاريخ العربي الإسلامي، أما قبل ذلك فلكل صقع تاريخه الخاص، فبالنسبة للشامي فإن حضارة الفينقيين والآراميين تبدو أجنبية، وحضارة القرطاجيين تبدو كذلك أجنبية لغير المغاربي".

ويضيف الموقع أن "العراقي ـ مثلا ـ ممكن أن يشعر بالانتماء المشترك مع المغاربي عندما يتحدث عن الفترة العربية الإسلامية، لكن ما إن يتم الحديث عن الحضارة القرطاجية والحضارة البابلية حتى يبدأ الافتراق بين العراقي والمغاربي والانحدار نحو الماضي".

ويتساءل بعد ذلك "كيف يمكن الجمع بين هذه التواريخ الوطنية المتنوعة؟ كيف يمكننا من ناحية احترام التاريخ الوطني المتميز والخاص بكل بلد عربي، ووضع كل واحد من هذه التواريخ الخاصة في سياق متكامل ومنسجم رغم التمايزات حتى التناقضات".

ليخلص إلى أن "المهمة التي تواجه العرب تتمثل بالعمل على كتابة التاريخ العربي بطريقة تعيد اكتشاف جميع العلاقات

التكاملية بين التواريخ الوطنية المختلفة، وهذا يبدأ أولا بإعادة الترابط بين التاريخ العربي الإسلامي والتاريخ ما قبل إسلامي، بهدف رد الاعتبار لماضينا وتراثنا الأقدم والأطول زمناً، الممتدة جذوره في أعماق وعي الناس وتقاليدهم ومفاهيمهم التي اندمجت في الحضارة العربية الإسلامية، فالأوربي على سبيل المثال مهما ركز على تاريخه الوطني (القطري) فإنه يشعر بالانتماء المشترك لتواريخ جميع الشعوب الأوربية: الإغريقي الروماني الجرماني السلافي، وهذا بالضبط الذي تحتاجه رؤيتنا إلى تاريخنا"!

وبذات المستوى تحدث الباحث الذي لم يفصح موقع (العراق للجميع) عن اسمه، عن توحيد الميراث الديني واللغوي بصورة غير مخلة بالإسلام والديانة، ويعتقد أن "القرآن الكريم نفسه خلا تماماً من هذا الفصل التعسفي والتنكر للماضي، فالقرآن رغم رؤيته الإلهية للتاريخ إلا أنه في حقيقته العميقة لا يتنافى مع الرؤية العلمية العلمانية لتاريخ المنطقة العربية"!

من الناحية الأخرى أجاب الدكتور عز الدين عمر موسى على سؤال (الحياة) حول ما إذا كانت مطالب إعادة كتابة التاريخ الاسلامي منطقية أو تمثل نوعاً من الترف العصري.. فقال: "تلك المطالب ليست نوعاً من الترف وإنما هي نوع من السفه، كونها تعد خوضاً في شيء لا معنى له. لن تستطيع أن تعيد كتابة التاريخ وإنما تستطيع أن تقرأه، والقراءة تعتمد على القارئ، بل حتى إعادة القراءة لا يحتاج إليها التاريخ، فهو كالبحر بحسب الغارف منه.

هناك من يريد ماء كثيراً وآخر يريد ماء قليلاً.. ومن بين الناس من يشتهي ماء متكدراً ومنهم من لا يريده إلا زلالاً نقياً".

وزاد " أنا لست من الداعين إلى تنقية التاريخ من بعض الروايات فأي رواية تمثل وجهة نظر أناس آخرين يبحثون عنها". واعتبر موسى " الحياد " أمراً مستحيلاً في التاريخ "فكل مؤرخ يلون الروايات بحبره"، مفنداً أن يكون ابن خلدون استثناء من تلك القاعدة .. ورأى أنه - أي ابن خلدون - "عندما كتب المقدمة اقترب من الحياد، ولكنه ما إن شرع في كتابة التاريخ حتى اقتفى إثر أسلافه من كتبة التاريخ الماضين، فكل يروي الوقائع من وجهة نظره متأثراً بآرائه ومواقفه وعقائده".

هل يحتاج التاريخ السعودي إلى إعادة قراءة؟

يعيش السعوديون اليوم الذكرى الرابعة والسبعين لإعلان ميلاد "المملكة العربية السعودية"، غير أنهم قادرون على الاحتفال بقرن وبضع سنين، بوصفها تؤرخ لاستعادة الملك عبد العزيز ملك أجداده، غداة ١٥ من يناير (كانون الثاني) عام ١٩٠٢، انطلق بعدها إلى توحيد معظم أنحاء الجزيرة العربية تحت دولة واحدة، هي الثالثة في الجزيرة لأسرة آل سعود من نجد.

ومع أن الباحثين فضلاً عمن دونهم يجدون صعوبة في إضافة جديد عن دولة بهذا العمر الطويل، - يكتبونه لأبنائها- إلا أن مؤرخين سعوديين اعتنوا بالروايات والوثائق والأحداث، يرون أن ما يعرفه المواطن السعودي عن دولته لا يتجاوز العناوين، على حين يعتقدون أن تفاصيل واسعة قد تتجاوز مصادرها ملايين الوثائق، لا تزال في انتظار من يبعثها من مرقدها.

والباحثون من هذه الشريحة يتجاوزون الوثائق التي تتحدث عن لحظات اقتحام الرياض واستردادها وإعلان تأسيس المملكة، إلى ما هو أدق من تفاصيل يرونها ذات مدلول سياسي أو اجتماعي أو حضاري.

وعلى سبيل المثال تجمع الوثائق والمصادر على أن "اليوم الخامس من شهر شوال عام ١٣١٩هـ الموافق الخامس عشر من شهر يناير ١٩٠٢م كان الذي تمكن فيه الملك عبد العزيز بن عبدالرحمن بن فيصل آل سعود من استرداد الرياض و العودة بأسرته إليها لكي يبدأ صفحة جديدة من صفحات تاريخ الدولة السعودية".

وهو الحدث التاريخي الذي يعد نقطة تحول كبيرة في تاريخ المنطقة نظراً لما أدى إليه من قيام دولة سعودية حديثة تمكنت من توحيد معظم أجزاء شبه الجزيرة العربية، و تحقيق إنجازات حضارية واسعة في شتى المجالات . فعندما بادر الملك عبد العزيز بإعادة بناء الدولة السعودية ظهر ولاء المنطقة و سكانها لأسرة آل سعود التي تتمتع بتاريخ عريق و جذور قوية تضرب في عمق تاريخ المنطقة القديم و الحديث. كما تقول وزارة الخارجية السعودية.

ويماثله في الشهرة ما حدث "يوم السابع عشر من شهر جمادى الأولى عام ١٣٥١هـ الموافق التاسع عشر من شهر سبتمبر عام ١٩٣٢م، إذ صدر أمر ملكي أعلن فيه توحيد البلاد و تسميتها باسم (المملكة العربية السعودية) ابتداء من يوم الخميس ٢١جمادى الأولى عام ١٣٥١هـ / الموافق ٢٣ سبتمبر ١٩٣٢م (الأول من الميزان)، ليصبح اليوم الوطني للمملكة".

وثائق من هذا القبيل وأخرى تتحدث عن "بداية ظهور النفط، وبعض مواقف المؤسس من الحربين العالميتين، إضافة إلى وثائق عن معارك مشهورة مثل السبلة ومثيلاتها"، ليس السعودي في شح من معرفتها ولكن ثمة وثائق يذهب المؤرخون إلى أن قيمتها تحتم كشف النقاب عنها.

ويشير عضو مجلس الشورى وأستاذ التاريخ في جامعة الملك سعود محمد آل زلفة إلى أن أمير منطقة الرياض الأمير سلمان بن عبد العزيز حاول أن يتدارك نقصاً حاداً في لم شتات الوثائق السعودية بين الأفراد والعواصم العالمية فوقف خلف إنشاء مؤسسة مهمة، سميت (دارة الملك عبد العزيز) تنهض بتوثيق وجمع تاريخ حقب الدولة السعودية، لكنها - كما يقول آل زلفة - بدأت متأخرة، وما تكفي وحدها للقيام بما يصبو إليه المؤرخون والدارسون، الذين أجهدهم مطاردة وثائق وطنهم في تركيا ولندن وسواها".

وأعرب عن أسفه لأن " تاريخنا الوطني كتب في فترات سابقة في منأى عن الوثائق الوطنية، لأنها أهملت إهمالاً كاملاً، والذين بدؤوا بالكتابة أناس مجتهدون، على أساس الرجوع إلى بعض المصادر هنا وهناك، بشكل تقليدي استمر عقوداً تفتقد للجديد، بسبب غياب المصادر الوطنية، ويجب أن نشكر ونعيد الفضل لأهله، وهم أولئك الرواد الذين استضافهم أو سمح لهم الملك عبد العزيز بمرافقته والبقاء إلى جانبه من الذين عاصروا المملكة منذ البداية، عرباً وعجماً".

أحبوه فتركوا أوطانهم

ويتساءل: "كيف نستطيع أن نعرف الكثير من جوانب تاريخنا الوطني لو لم يكتب أولئك الذين احتضنهم عبدالعزيز بصدره الواسع..حينما أسس دولة في طورها الثالث، كانت البلاد تفتقد إلى كفايات وخبرات، وأصحاب مواهب، مثل: فلبي، أمين الريحاني، فؤاد حمزة، والزركلي وغيرهم".

وهناك رحالة آخرون، مثل: محمد أسد النمساوي اليهودي، الذي رأى في منامه وهو في فيينا شمسًا تسطع من الشرق، وكان مراسلاً ناجحًا خلال الحرب العالمية الأولى.. فلما سمع عن عبدالعزيز، والإخوان، وقيام دولة في الجزيرة العربية؛ بدأ يفسر حلمه إلى أن دخل الإسلام، وكان من أكثر الناس حبًا لعبدالعزيز، وكتب كتابًا، وكان لمفكرينا الوطنيين محاولات في كتابة التاريخ متزامنة مع بعض هؤلاء، مثل عبدالغفور عطار؛ والسباعي وغيرهما ممن كتبوا، ثم الشيخ حمد الجاسر، الذي كتب بعضًا من تاريخ الجزيرة العربية على شكل مذكرات، نشرت في المجلة العربية أو الفيصل، وإذا جمعت هذه كلها تعد فصولاً متناثرة من تاريخ المملكة العربية السعودية، حتى جاء الأكاديميون الجدد، الذين مكنتهم الدولة على الابتعاث إلى الخارج.

وما بقى الآن في نظر آل زلفة يتجاوز معرفة وقائع بعينها إلى إلمام السعوديين بتاريخ وطنهم من مصادر وطنية كالوثائق، أما

الكتاب والمتطوعون من العرب والأجانب فيرى أنهم أسهموا بما فيه الكفاية.

وعاد إلى تساؤلاته قائلا: "هل كل ما كتبه الآخر عنّا هو تاريخنا الوطني الحقيقي؟! أم نحن الآن بحاجة إلى معرفة تاريخنا من مصادرنا الوطنية؟ إذن ما أهم مصادر التاريخ؟ أقول: الوثقائق. الملك عبدالعزيز منذ أن أسس دولته الحديثة؛ أسس دواوين متخصصة: ديوان شؤون البادية، وديوان الشؤون السياسية..إلخ. وحينما اكتملت الوحدة وضمت حكومة الحجاز أسس أول مجلس للشورى، الذي يعد أول مجلس شورى تعرفه الجزيرة العربية، حتى هذا العمل الرائد لهذا الزعيم الرائد لم يعط أبعاداً ولم ينشر كظاهرة حضارية .. هناك أجيال ستسألنا: ماذا كتب عن تاريخنا الوطني؟ فعلينا جمع وثائقنا في أي ديوان توجد فيه، لكتابة تاريخنا الوطني انطلاقًا من هذه المصادر الوطنية".

لكن آل زلفة عندما سألته "الحياة" عما تضيف الوثائق إلى ما كتبه معاصرو الملك عبد العزيز من العرب والأجانب، أجاب: "الوثائق لا تقول شيئاً لأنه لم تستثمر، كأنها مرت مر السحاب، لم تستثمر بالشكل الذي يجب. لاتزال بعض الوثائق في أماكن مظلمة لم تصلها أيد الباحثين؛ ولذلك هنالك شريحة من المهتمين أخذت تبحث عن بديل عبر الوثائق الأجنبية؛ وأنا واحد من المؤرخين الذين عولوا على الوثائق الأجنبية لأننا وجدنا تأثيراً بالغاً للدولة السعودية الأولى والثانية في المنطقة، وفي بريطانيا وروسيا، مع أننا

لم نهتم بتاريخها إلا مؤخراً ولا عذر لنا؛ لذلك أنا أطالب بإعادة كتابة تاريخنا من واقع الوثائق".

وأين الوثائق؟ "وزارة المالية تتكدس الوثائق فيها بشكل كبير، لكنها لم تقدم على هيئة يستفيد منها الباحثون. أنا أعتقد أننا ونحن نحتفل بتاريخنا الوطني لا نستطيع إبراز تاريخنا للأجيال لأننا لم نكتبه من واقع وثائقنا الوطنية".

ومع أن دارة الملك عبد العزيز التي تعد المؤسسة الأولى المعنية بهذا المطلب، تبذل جهوداً مضنية في سبيل لم الشتات المبعثر من وثائق السعودية العامة والخاصة، إلا أن آل زلفة لم يجد حرجاً في وصف حجم الوثائق التي أعلنت عن توفرها لديها بـ "القليلة جداً"، مقارنة بالحجم الحقيقي للوثائق الوطنية، والتي قدر أعدادها بالملايين، في وقت قال إن الدارة ربما لا تملك أكثر من ٢٠٠ ألف وثيقة. بينما تقول مصادر الدارة خلاف ذلك، وتؤكد امتلاكها لنحو ٣ ملايين وثيقة، أصلية ومصورة.

ويتطلع آل زلفة إلى أن يتم سن قانون يلزم الدولة بالإفراج عن أي وثائق لا يشكل نشرها خطراً أمنياً، معتبراً تحديد ذلك بثلاثين عاماً مناسباً. وهي مدة قال إنها "أقصى ما تسمح القوانين العالمية بأن تمكثها الوثائق مخبأة عن مواطني الدولة".

وما يميز الوثائق في نظر الباحث أنها "تمنح الكاتب والباحث فرصة أن يعرِّف الأجيال اللاحقة باللحظات الحاسمة في نشأة

كيانهم الذي يعتزون به، فنحن - فضلاً عمن بعدنا - نريد أن نعرف التاريخ الحربي، والرجال الذين حاربوا مع الملك عبد العزيز من منظور اجتماعي، وكيف يتم تمويلهم، ومن أين تأتي الأسلحة".

وثائق لم ترصد

وأما أحاديث الوثائق التي تثير لعاب عضو الشورى المثير، فهي كثيرة، غير أنه سمح بنماذج طريفة، وذات عمق في الآن، بينها:

- خلافاً للذين يعتقدون أن الملك عبد العزيز في حينه يعتمد على الأوامر والتعليمات الشفهية، وجدنا وثيقة تعود لعام ١٣٢٠هـ أي بعد دخوله الرياض بعام واحد، تتضمن توظيفه المحاربين، والمناطق التي كانت تمولهم. وهناك أسماء من أتوه بالزكاة من القصيم بأسمائهم، وكميات من التمر يعين بها غير المحاربين إخوانهم حاملي السلاح. قيمة هذه الوثيقة في نظر آل زلفة في أنها تجسد البعد المدني والحضاري للمراحل الأولى من نشأة الدولة.

- وثائق وجدناها في الأحساء ضمن مطاردتي للآثار التاريخية، أبكتني لأنني وجدتها مهملة وبين أدوات زراعية على رغم مما تمثله من قيمة تاريخية، تمتد حتى اللحظة. وتتحدث عن أن الملك لما دخل الأحساء وجد لديها قوانين متوارثة، بوصفها مدينة متحضرة، فجمع أناساً من الأحساء وقال: ترجموا لي هذه القوانين إلى اللغة العربية، وبعد انتهائهم من ترجمتها بعثوا

بنسخة منها إلى الملك. وقيمة هذه الوثائق في تبيانها أن الملك ليس عدواً للثقافة والحضارة.

- وجدنا وثائق في وقت مبكر من تاريخ الرياض، هي أشبه ما تكون بتوزيع النفقات بين المحاربين، وكانت وثيقة منها تتحدث عن طريقة توزيع الملك للذبائح بين زوجاته، فذكرت أن لفلانة شيئاً وللأخرى قسماً آخر، أما أخت الملك نورة فلها (نصف الذبيحة)، انظر كيف كانت قيمة المرأة.

- وجدنا وثيقة تحكي قصة إخراجه لأخيه سعد من الأسر لدى رجال الشريف الحسين، وكان سعد من أشجع فرسان الملك، فتفاوض معهم عليه، حتى أطلقوا سراحه، وفي وثائق هذه القضية يجد المطلع البعد الإنساني في شخصية الملك، لمكانة أخيه الوجدانية منه كشخص دون بقية الاعتبارات.

ويستطرد: الأمير سعد نفسه وقفنا على وثيقة يطلب فيها من الشلهوب (مدير مالية الملك عبد العزيز) قطعة من قماش ينام عليها!

بطولة ملك ... لا تحتاج إلى وثائق

ويشير زميله عضو مجلس الشورى الدكتور عبد العزيز الثنيان الذي كتب سلسلة للأطفال عنوانها "بطولة ملك" تحكي اللحظات الأولى من فتوة المؤسس الملك عبد العزيز إلى لحظة إعلانه تأسيس المملكة، إلى أنه ليس مؤرخاً وإنما عالج بأسلوب أدبي ما تضمنته

المصادر الموثقة من تاريخ "ملك عظيم أمضى زهرة عمره فوق ظهر حصانه، يوحد ويجمع، يلم ويبني، وهدفت منها أن يقرأها الشباب وغيرهم، فيستعيدوا ذكر هذا العظيم ويعتزوا بهذا المؤسس، ويفخروا بالمجد الذي ورّثه، والتآلف الذي حققه".

وأضاف أن سلسلته تروي في الوقت نفسه "دهاء القائد وفطنة المؤسس، وبراعة الموحد، وعظمة الرمز، وتحكي الأهوال التي تعرض لها، والأخطار التي طوقته، وتصور الولاء الذي كان له عند الأجداد، والحب الذي كان له عند الحاضرة والبادية".

وأكد أنه إلى جانب ذلك حاول عرض "حلم المؤسس وبطولته وعكس فطنته ونجابته، وعظمته في المواقف الحرجة، وكيف عالجها؟ وتصور خوفه من الله، واحترامه للعلماء، وتقديره للفرسان، وإكرامه المخلصين، وصدق نيته وإخلاصه لدينه".

وبخلاف آل زلفة يعتقد الثنيان أن تاريخ المملكة لا يحتاج إلى إعادة صياغة، بقدر حاجته إلى توظيف، "فواقع المملكة البادي في دولة عصرية تمثل قلب العالم الإسلامي، وأحد أركان الاقتصاد العالمي، أبلغ من أي شيء آخر يمكن أن تتحدث عنه وثيقة مطمورة هنا أو هناك".

لكنه لم يقلل من أهمية الأبحاث التاريخية، والتنقيب في ذخائر التراث، مؤكداً أن "أي أمة لا تفتخر بتاريخها لن تنجح في التقدم بحاضرها" بيد أنه اعتبر القول بحتمية إعادة كتابة التاريخ السعودي "ضرباً من المبالغة والإثارة".

ويضيف: "هنالك آلاف المواقف الجميلة بل والمدهشة التي نقلتها لنا المصادر المنشورة بين أيدينا عن رجال السعودية الأوائل وعلى رأسهم الملك عبد العزيز، لكننا لم نوظفها كما يجب، ولم نستلهم منها دروساً تربط الماضي بالحاضر".

ثلاثة ملايين وثيقة تضمها الدارة

وتعد دارة الملك عبد العزيز التي يرأس مجلس إدارتها أمير منطقة الرياض الأمير سلمان بن عبد العزيز أبرز جهة تضمها السعودية، تُعنى بتوثيق تاريخ الدول السعودية الثلاث، وبذلت جهوداً مضنية، جعلت منها مقصداً للباحثين السعوديين والعالميين، هذا إلى جانب المتحف الوطني الذي يعد من أفخم المتاحف الوطنية في العالم، بما يضمه من تقنيات تعرف الزائر على تاريخ البلاد السياسي والديني، بأساليب مبتكرة، استخدمت فيها التقنية والصور والمجسمات بكثافة عالية.

وتضم الدارة ١٥ إدارة وقسماً، ربما يعتبر "مركز الوثائق والمعلومات"، بوصفه أحد الحاضنات المحلية لأهم أوعية المعلومات التاريخية التي تحفظ ذاكرة تاريخ السعودية بوجه خاص والبلاد العربية والإسلامية بوجه عام.

ويتخذ المركز عدداً من الوسائل لأداء مهمته في جمع الوثائق، منها المشاركة في المعارض المحلية والدولية التي تحرص الدارة على المشاركة فيها لاستكشاف الجديد في عالم الوثائق، ومد جسور

التواصل مع المؤسسات العلمية مثل الجامعات والمراكز الإرشيفية والبحثية في العالم، والتواصل المستمر مع المهتمين باقتناء الوثائق النادرة للحصول على نسخ من الوثائق المحفوظة لديهم.

ويشير أمين عام الدارة الدكتور فهد السماري إلى أن الدارة فتحت الباب للأسر السعودية والأفراد، خصوصاً من لهم علاقة بالعمل الحكومي أو من كانوا قريبين من أصحاب القرار أو من المؤثرين في المجتمع أو العلماء أوالأدباء لتسليم ما لديهم من وثائق في محاولة من الدارة للمساهمة مع أصحابها ومقتنيها في حفظها بعد إجراء جميع العمليات الفنية عليها من الإهمال والنسيان أو التلف و إبراز قيمتها التاريخية والعلمية، بالإضافة إلى اتفاقيات التعاون التي وقعتها الدارة مع مراكز الوثائق العربية والأجنبية التي تحوي في جانب منها تبادل مصورات المواد العلمية والتاريخية المشتركة.

ويحتفظ مركز الوثائق والمعلومات بمجموعات ضخمة ونادرة من الوثائق المحلية الأصلية والمصورة التي تتجاوز (ثلاثة ملايين) وثيقة تشمل مراسلات تاريخية وصكوكاً وملكيات ووقفيات وخطابات رسمية وقرارات وبيانات وتقارير، إضافة إلى عشرات الآلاف من الوثائق العثمانية والأمريكية والبريطانية والفرنسية والهولندية والألمانية والهندية والروسية والإيطالية ذات العلاقة بتاريخ المملكة العربية السعودية وتاريخ الجزيرة العربية وتاريخ باقي العالم العربي والإسلامي حيث قام المركز بترجمة العديد منها

وعمل ملخصات لها باللغة العربية وتقديمها للدارسين والباحثين، كما يضم المركز قسماً للأوراق الخاصة تودع فيه الأوراق والوثائق الخاصة الشخصية من مراسلات ومذكرات لأعلام وشخصيات أسهمت في صناعة تاريخ المملكة العربية السعودية.

جاهلية الزواج

تميزت عادات العرب القبلية في أصلها قبل الإسلام، بالانحياز للقريب سواء في إسداء المعروف أو دفع الشر، أو حتى الزواج. وفي حينه كانت النساء جزءاً من المتاع الذي تشد من أجله الغارات، وتعقد بسببه التحالفات.

وأُثر أن القبائل العربية تجنح دوماً إلى تزويج أو الزواج من الأشد منها بأساً، حتى تتقي شرها. وأخذ التزاوج بين الأقارب أبشع صوره في نكاح الرجل حليلة أبيه بعد مماته، إذا لم تكن أمه!!

ومع أن الإسلام الذي جاء بعد ذلك، جاعلاً معيار الكفاءة في التزويج هو "التقوى"، حارب العضل أياً كانت دوافعه، إلا أنه لم يفلح كثيراً خصوصاً في أزمنته التي كانت للقبيلة - وليس للإسلام - (كلمة الفصل) فيما يأتي الفرد وما يذر!

وهكذا غدا الزواج من الأقارب الذي لم يعارضه الإسلام بمفهومه البريء شائعاً بألوانه الطوعية والاستبدادية، وبوسع أوهى الدارسين ذاكرة أن يستحضر نماذج من الثاني، في وقت لا تحصى

فيه نماذج الأول، إذ اشتهرت "نوار" الصالحة، بوقوعها في فخ ولاية ابن عمها السفيه الشاعر "الفرزدق"، الذي اصطفاها لنفسه عنوة. وكان لا يتورع من أي موبق لفظي أو سلوكي - على ذمة المؤرخين - فيما احتلت هي المقامات العلية من التنسك والعفاف.

وحين ظفرت بطلقة طائشة منه بعد لحظة غضب من الفرزدق، ولجأت إلى الصحابي الجليل عبد الله بن الزبير في مكة، تبعها الشاعر الهيمان، وراودها على العودة فتأبت، وتحصنت بالأمير -آنذاك- ابن الزبير، قبل أن يسلمها مكرهة إلى الفرزدق!

ويزعم المؤرخون أن ابن الزبير عارض تسليم "نوارٍ" إلى زوجها أول الأمر، إلا أن الفرزدق عاد إليه هاجياً:

ليس الشفيع الذي يأتيك مؤتزراً

مثل النذير الذي يأتيك عريانا

وهو بذلك يتهم الأمير بأن وقوفه في صف نوار لغاية غير شريفة، فما كان من الصحابي الكريم إلا أن خير "الفتاة الضحية" بين العودة إلى ابن عمها أو قتله! فاختارت العودة إلى الجحيم.

أما النماذج الحسنى من زواج الأقارب، فربما كان أنبلها في التاريخ الإسلامي زواج علي بن أبي طالب رضي الله عنه، من سيدة نساء العالمين فاطمة بنت النبي صلى الله عليه وسلم. فكانت حياتهما مليئة بالطهر والمحبة والقداسة.

وفي الماضي والحاضر، يجمع الكاتبون الإسلاميون والاجتماعيون الذين اعتنوا كثيراً بهذه الظاهرة، على أن إرغام الأولياء مَن تحت أيديهم من النساء على نكاح أقاربهن، كان الذي جعل من "زواج الأقارب" عنواناً مفزعاً، وسيئ السمعة، وذلك قبل أن تشهد رؤى الأطباء في هذا الاتجاه رواجاً بين الناس.

ومع أن حجر ابن العم على بنات عمه، كانت عادة جاهلية قديمة إلا أن طمع الآباء في أموال بناتهم الآنسات، أصبح نازلة جديدة، تضاف إلى عضل أبناء العم. ما أحوج هيئة كبار العلماء في السعودية عام ٢٠٠٦ إلى إصدار بيان تتوعد فيه الأولياء المجحفون بالملاحقة.

ولدى الحديث عن آراء الأطراف ذات العلاقة بزواج الأقارب راهناً، تبرز على الساحة السعودية ثلاثة أطراف هي: الشبان، والأطباء، وعلماء الدين.

الشبان ذكوراً وإناثاً يختلفون حول المسألة جذرياً، ولا يكاد اثنان يتحدان في رأي حولها: محمد (٢٧) عاماً ينظر لما هو أبعد قائلا: " الزواج من ذوي القربى أصبح مُلِحّاً اليوم، أي لا بد من إلزام ابن العم أو ابن الخال بالزواج من الأقارب بسبب معاناة الكثير من قلة الزواج، فالشاب لم يعد قادراً على تلبية رغبات الفتاة الغريبة التي تريد المال والحب والجاه، وكذلك الفتاة أصبحت تعاني من العنوسة بسبب عدم إقدام الناس على الزواج بها لأنها فقيرة أو بسيطة.. إلخ. وبرأيي فإن زواج الأقارب أمر مُلِحٌّ في أيامنا هذه

وليس له أضرار، فالتطور التكنولوجي والطبي خفف من أضرار زواج الأقارب، وكل شيء بيد الله".

أما "وفاء المحمد" (٢٥ عاماً) فتتحدث إلى الزميل أحمد العمودي وتؤكد رفضها لزواج الأقارب بشكل عام.. مشيره إلى أن زواج الأقارب يدعم تكاثر المشاكل العائلية التي علقت عليها بقولها: "أنا في غنى عنها".

وأشارت إلى أن هناك الكثير من المشاكل في زواج الأقارب، منها الأمراض الوراثية التي قد تصيب الأبناء، إضافة إلى أن أول ليلة من الزواج ستظهر مشاكل قد تؤدي إلى الفصل بين الأزواج وتلاشي فكرة استمرار الحياة الكريمة.

وأكدت أن الخلافات العائلية تتزايد بشكل سريع، فبدلاً من أن تبدأ بواحدة لتنتهي تصبح اثنين وثلاثة وتكبر بين العائلة التي تتناقلها حتى يصبح جميع أفراد العائلة في نزاع متواصل.. مما يدعم فكرة عدم الاقتران بقريب.

وهناك إبراهيم الذي لم يهتم بالقرب ولا البعد، وإنما " فتاة أحبها وتحبني، وتملك مواصفات لا أتنازل عنها، ويكون بيننا تلاقٍ فكري، ولا بأس ببعض البهارات المرغبة لي أكثر، مثل أن تكون موظفة، وابنة أسرة (كشخة)" ضاحكاً.

وإبراهيم على أنه ظن أن ما قاله مجرد نكتة، إلا أنه في واقع الأمر أحد أسباب تفضيل شباب اليوم والأمس للبحث عن شريكة حياة بعيدة عن أسرته.

أما الأطباء فإنهم كما يقول أستاذ الوراثة في الجامعة الأميركية الدكتور كارل جورج فيرون أن "زواج الأقارب في ذاته ليس عاملاً على إضعاف النسل أو تشويهه بالأمراض والعاهات في كل الأحوال، فإذا لم تكن السلالة نفسها ضعيفة، فلا يمنع أن تظل نقية قوية".

لكنه يستدرك قائلاً: "إلا أن الحالات التي تظل فيها هذه الأسر صحيحة نادرة في التاريخ، ولا يمكن اعتبارها مقياساً، ويؤكد ألف مرة بأن زواج الأقارب مضر من حيث إنه يؤدي إلى تلاقي الخصائص الفاسدة في الأقرباء".

ويعلق الدكتور عز الدين فراج الذي نقل عن جورج قوله بأن "أبرز أثر لزواج الأباعد أمامنا في العالم الأميركي الجديد، إذ نجد سلسلة من شعوب مختلفة، استوطنت أميركا. وهذا الاختلاف والتباين بين الشعوب التي نزحت إلى أميركا قد أدى إلى تحسين النسل من الناحية الجسمانية والعقلية".

ولا يجد علماء الدين من جانبهم إشكالاً شرعياً في التزاوج بين الأقارب، أما إذا ثبت أن رجلاً وامرأة سيترتب على زواجهما (مرضٌ أو عاهة) فإن الشريعة تنهى عن ارتباطهما سواء كانا قريبين أو بعيدين. وكانت وزارة العدل السعودية فرضت في ١٤٢٥/١/١٥هـ الفحص قبل الزواج، ووجهت مأذوني الأنكحة بعدم العقد إلا للمتوافقين من الناحية الطبية، بعد أن شهدت السعودية تنامياً في ولادة ذوي الإعاقة.

ويجيب الداعية السعودي الشهير سلمان العود من سأله عن حكم الزواج بين الأقارب قائلاً: "يجوز الزواج من الأقارب، لكن الأطباء لا ينصحون به إلا مع الكشف، لأنه يكون أحياناً سبباً في حدوث مرض للأولاد، وهذا مجرّب".

حيْونة السياحة!

في مرحلة مبكرة من أي إجازة يبدأ المصطافون في شد رحالهم، نحو الدول والمدن التي أسرتهم بمفاتنها السياحية، أو تلك التي يملكون نفقات تؤهلهم لقضاء أوقات مناسبة فيها، وإن اعتبروها دون مستوى طموحاتهم وآمالهم.

وفي وقت يبرز التفاضل بين الوجهات السياحية من زاوية ما تمتلكه من مقومات أساسية مثل الفنادق والشواطئ والأسواق والمراكز الترفيهية، والنشاطات الثقافية كالمسرح والسينما، تأتي "الأجواء المحتشمة" في طليعة خيارات المجتمعات المحافظة.

وهذا ما اعتبره المراقبون أهم المعجزات التي واءمت بينها "ماليزيا"، بأن راهنت على تقديم سياحة، تناسب "العائلات المحافظة"، وهي بذلك - كما يقول سائحون سعوديون - تريد أن تجعل من نفسها "قبلة" السعوديين والخليجيين كل عام، وقد كانت.

إلا أن دولاً إسلامية وعربية دخلت هذا الخط أيضاً، ربما لاكتشافها أن "أسراباً من السياح ولوها الأدبار لافتقار سياحتها للحشمة اللازمة" كما يقول السائح (أحمد العلي) ٣٧ عاماً، الذي يتابع عروض السياحة التي وصفها بالمحافِظة كل عام.

ويقـر السـائح العلي أن ازدياد الطلب على هذه النوعـيـة من السياحة أمر مشجع للسياحة المحلية (السعودية) التي هي الأخرى تركـز على المواطنين والمقـيمين فـيـها بـالإضـافـة إلى البـاحـثين عن الأجواء المحافظة من الخليجيين، معززة ببقية المقومات المهمة.

وربما كان هـذا الذي دفع كاتبـاً سعـودياً هو زياد بن عبـد الله الدريس إلى تصنيـفـه للسـيـاح من بلاده إلى ثلاثة أصناف، دعـا الهيئة العليا للسياحة إلى الاهتمام بهم جميعاً ويقول: "الناس في السياحة ثلاثة: فئة لن تسافر إلى الخارج، وستسيح داخليا مهما كانت السياحة الداخلية، بسبب من قناعاتها أو ظروفها الاجتماعية أو أحوالها المادية. فئة ثانية ستسافر إلى الخارج، ولن تسيح داخليا مهما كانت السياحة الداخلية، بسبب برتوكولاتها أو مركزها الاجتماعي. ثم فئة أخرى: لا تحمل قرارا مطلقا، فهي تراوح بين الداخل والخارج حسب العرض والطلب".

ويضـيف: "إذا اتفـقنا على أن المجـتـمع ينقـسم بشـرائحـه السياحية بين هذه الثلاث فئات أمكننا أن نبلور الرسالة التي ينبغي العمل عليها في تسويق السياحة. فالشريحة المستهدفة في الترويج للسـياحـة الداخليـة هي الفـئة الثـالثة التي تنظر وتراقب مـا الذي تحقق في صناعة السياحة من أجل البقاء، أما الفئة الأولى فهي ستبقى داخليا، حتى لو تقلصت المناشط السياحية إلى سيارة آيسكريم تجوب الأرصفة البرية والبحرية، لكنها حتما تستحق الاهتمام ليس من أجل إغرائها، ولكن من أجل حقها الوطني".

وتابع: "أما الفئة الثانية فهي التي ستسافر إلى الخارج حتى لو سافر "لخارج" إلينا لأنها "ساحت" يوما ما ثم تيبست في قوالب اجتماعية معدة... للاستخدام الخارجي، وبالتالي فإن هذه الفئة لن يجدي فيها توجيه رسائل السياحة الداخلية، لكنه سيجدي فيها حتما توجيه رسائل عن أصول السياحة في الخارج، والأعراف والقيم التي ينبغي اصطحابها في حقيبة السفر".

ويخلص الدريس إلى بيت القصيد الذي يتقاطع عنده مع غالبية الداعين إلى السياحة المحتشمة ويقول، في مقالة له في نشرة الهيئة العليا للسياحية:"السياحة فن يمكن من خلالها تنمية القيم والثقافة، ويمكن من خلالها أيضا هدم القيم والثقافة و "حيونة" المتعة .. فكيف يمكن صياغة هذا الفن تربويا وأخلاقيا دون استخدام اللاءات السائحة؟".

وفي تركيا: أكد خبير سياحي تركي أن السياحة المحافظة تحولت الى ظاهرة تغزو سوق السياحة في تركيا وتدفع المستثمرين في مجال السياحة إلى استثمار الدول الإسلامية.

وأوضح الخبير والكاتب في مجلة (واران) السياحية التركية دورسون اوزدان في تصريح لوكالة الأنباء الكويتية (كونا) في صيف ٢٠٠٥ أن "مصطلح السياحة المحافظة بدأ يتردد في وسائل الإعلام التركية قبل ١٠ سنوات حينما بادرت إحدى المجموعات الاقتصادية التركية المتمركزة في ألمانيا إلى شراء فندق ضخم من صنف ٥ نجوم مطل على شواطئ بحر إيجة".

وأشار إلى "أن هذا الفندق الذي أطلق عليه اسم كابريس كان يؤكد في إعلاناته عبر مختلف الصحف التركية أنه لا يوزع الخمور وأن لديه مسجداً ومسابح خاصة للنساء". وأوضح أوزدان "أن هذه الإعلانات التي ظهرت قبل سنوات أثارت إعجاب الأسر المحافظة أو المتدينة في تركيا التي لا تحبذ ارتياد الفنادق والمنتجعات السياحية التي توزع الخمور كما هو معتاد في الفنادق التركية" مشيراً إلى أن "إعلان فندق كابريس عن وجود مسابح خاصة للنساء وأخرى للرجال كان الدافع الأقوى لتوجه الأسر التركية المحافظة إليه".

وقال: "خلال السنوات الأولى لظهور هذا الفندق بهذا المفهوم الجديد للسياحة ورغم أن طاقة استيعاب الفندق تفوق الألف سرير إلا أنه عجز عن تلبية جميع الحجوزات نتيجة لكثرة الطلب من المصطافين من الأسر المحافظة ". وأضاف: "تحول السياحة المحافظة في تركيا إلى ظاهرة حقيقية دفعت العديد من المستثمرين الأتراك في مجال السياحة إلى استثمار أموالهم في هذا المجال، فظهرت العديد من الفنادق والقرى السياحية من صنف الخمس والأربع نجوم تطل معظمها على سواحل البحر المتوسط أو بحر إيجة".

وأكد أن "ظهور عدد جديد من المؤسسات الفندقية المحافظة ساعد في بروز روح التنافس بين هذه المؤسسات الذي انعكس بشكل مباشر وإيجابي على المصطافين حيث للمصطاف خيارات كثيرة أمامه".

إلا أن الذي أضحى مثيرا للدهشة ما كشفت عنه إحصاءات من كون غالبية السياح يتجهون إلى دول أو مدن ليس بالضرورة أنها أفضل من التي يسكنونها، والتي غالباً ما تعمى عيونهم عن مميزاتها الترفيهية والسياحية.

هكذا قالت دراسة إسبانية ميدانية لمعرفة مدى علم سكان المدن الكبيرة بما تنطوي عليه مدنهم من المعالم السياحية، أظهرت أن سكان المدن، وخاصة المدن الكبيرة، "لا يعرفون الكثير عن أحياء مدنهم، ولا ما يمكن أن يجدوه من صناعات أو تجارة أو فنون في مدينتهم التي ينتسبون إليها، وقد تبين أن هناك ما يزيد عن ربع سكان المدن الكبيرة تنقصهم الدراية الكاملة بأسرار وثروات مدينتهم من حيث الجمال والمعالم ومناطق الزيارات".

وتبين أن ٦٠٪ من سكان المدن الكبيرة يعرفون عن مدن أخرى أكثر مما يعرفون عن مدينتهم ذاتها.

وكشفت دراسة أخرى أن ما يزيد عن ٧٠٪ من سكان المدن الكبيرة يفضلون السفر خارج مدينتهم، بدعوى رغبتهم في معرفة الجديد، بينما هم يجهلون الكثير من أسرار مدينتهم الجميلة والتي تجلب السياح إليها.

تعريف السكان بمعالم مدنهم!

ومثلما يلاحظ معدو التقرير فإن كل مدينة من مدن العالم يمكن أن تكون منطقة سياحة ليس للغرباء وحدهم، بل لأهل البلدة

ذاتها، فقد اتضح من الدراسات السابقة، أن السفر ليس ضرورة سياحية، ويمكن أن تقوم سياحة محلية، لتعريف سكان المدن ذاتها بمدينتهم التي يعيشون فيها وينتسبون إليها.

وسائل للنصب والشفاء معاً!

في معظم الأحيان لا تكون "المشكلة" في المبدأ ولكن في تحويره أو تحريفه. في اتخاذه سلماً لأغراض دنيئة تحت غطاء "الأصل" الذي لا غبار عليه ولا اعتراض. يصدق هذا الواقع على ثلاثي: "الرقية والحجامة والكي".

هل ينكر مسلم آية من القرآن تنص: "فيه شفاء للناس"؟ أو يجحد أخرى تقول: "وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين"؟ أم يكذب أحاديث صحيحة عن جواز الرقية وأخذ الأجر عليها؟ لا أحد يجادل في كل تلك المسلّمات، غير أن الجدال كله فيمن يتخذونها ذرائع لانتهاكات في أنحاء شتى.

الأمر مختلف في الحجامة والكي قليلاً، فعلى الرغم من مشروعية الطريقتين إلا أن الجدل حول بقاء الحاجة إليهما بعد تقدم الطب لا يزال قائماً وشائعاً، بيد أن النقاش الآن: هل باتت وسائل الشفاء في الأصل "الرقية، والحجامة، والكي" ذرائع للنصب بعد أن كانت الأولى أول الطب والثانية وسطه والثالثة آخره؟

معجزات للتسويق!

في السعودية يجمع العلماء على تفضيل أن يرقي الإنسان نفسه من دون بحث عن "وسيط بينه وبين ربه"، لكن الباحثين عن "الأولياء" أو الأطباء الدينيين لا يصغون إلا لعروض مغرية من قبيل وصف أحدهم لبلائه الحسن في هذا الصدد قائلا:"رقيت أدواء مستعصية. عالجت السرطان. رقيتها فأنجبت. كانت مسحورة ميئوساً منها فرقيتها فعادت كأن لم تُصب بأذى".

وأي حديث عن الرقاة بالهواتف، والموزعين لبركة "تفلاتهم" على ذبذبات مكبرات الصوت، والنافثين في براميل المياه كسباً للمال والوقت، يعد مكروراً.

وشاهدت "الحياة" عند أحدهم كيف يرتفع سعر جالون يزن (٥) كلجم من (١٠) ريالات إلى (١٨٠) ريالاً بفعل نفث حضرته.

وإذا كان رقاة في الرياض اشتهروا بصلاحهم وتقواهم وتقبل الميسور من قاصديهم، فإن آخرين أكثر عدداً في مناطق أخرى اشتهروا بلي ذراع المصابين بـ "العين والسحر" الذين تشكل النساء غالبيتهم.

وعلى الرغم من أن عضو هيئة كبار العلماء في السعودية الدكتور عبد الله المطلق أعلن في مؤتمر عن الطب الشعبي، نظم في مستشفى التخصصي في الرياض عام ٢٠٠١ اهتمام هيئة كبار العلماء بـ"هذا الملف"، إلا أنه لا يزال الأمر كما كان.

الطب البديل في الصحة يقنن "الحجامة"

أما "الحجامون" فإن العروض أقرب إلى الباحث عنها من حبل الوريد، خصوصاً إذا كان المرء من هواة المغامرة، بأن يرهن صلعته إلى شخص، يمسك الموسى بيدٍ والمحقان بيد أخرى.

وإذا كان الحلاقون في شوارع معروفة اعتادوا على استضافة "المغامرين" على كراسي الحلاقة نفسها، فإنهم لا يلامون بالقدر الذي تلام فيه "وزارة الصحة" التي لا تقصر في المنع، بيد أنها "قصرت كل التقصير في إيجاد قانون ينظم ممارسة الحجامة، مثلما هو متبع في دول عربية مجاورة"، كما يقول أحد المهتمين.

المتحدث الرسمي عن وزارة الصحة الدكتور خالد مرغلاني أشار إلى أن " الوزارة لم تمنح أي منشأة التصريح بممارسة الحجامة، ولا يزال الموضوع قيد الدراسة في إدارة الطب البديل في مراحله الأخيرة"، بينما الدكتور عبد الله البداح من الإدارة نفسها رفض الحديث عن الموضوع إلى حين آخر، معللاً بأنه "خارج المملكة والحديث عن الموضوع يحتاج إلى سواليف".

الكي مؤلم نفسياً ومكروه شرعاً

أما الكي فإنه لا يبدو في الوقت الراهن له موقع في الممارسة الميدانية، باستثناء حالات شاذة. ويعود ذلك إلى "انتفاء الحاجة إليه" كما يرى مرغلاني. إضافة إلى الجدل الشرعي حوله منذ القديم، إذ وردت أحاديث عدة عن "الكي" قال الداعية السعودي

محمد بن صالح المنجد "هي على أربعة أقسام: دالة على الجواز، ومبينة عدم محبة النبي صلى الله عليه وسلم له، وقسم ثالث يثني فيه على تاركه، وآخر رابع يدل على كراهته عليه الصلاة والسلام له".

وأضاف: "بهذا يتم الجمع بين الأحاديث، فالنهي عنه يدل على كراهته، وأحاديث فعله تدل على جوازه إذا احتيج إليه (...) أما سبب كراهيته فلما فيه من تعذيب النفس وإيلامها".

وأما واقع الاهتمام بالحجامة كوسيلة علاجية "شعبياً وشرعياً" فتشبهه الكاتبة سميحة بنت علي مراد بمن "أغلق باب الدار وجلس أمامه يتسول من كل رائح وغاد.. بعد أن ترك بداخله ثروات وكنوز موضوعة في صناديق، ولكنه تكاسل عن فتحها واستخراجها واستسهل أن يعيش على بقايا الآخرين.. وفجأة مر به من أعطاه، فوجد ما أعطاه شيئا رآه من قبل في مخازن والده. فانتبه لذلك وعاد إلى كنوز أبيه يبحث فيها؛ فوجد من الثروات ما يغنيه عن التسول من الآخرين. فالحمد لله الذي هداه".

وزادت "الحجامة معروفة منذ القدم، عرفها الصينيون والبابليون والفراعنة، ودلت آثارهم وصورهم المنحوتة على استخدامهم لها في علاج بعض الأمراض، وكانوا في السابق يستخدمون الكؤوس المعدنية وقرون الثيران وأشجار البامبو لهذا الغرض، وكانوا يفرغونها من الهواء بعد وضعها على الجلد عن طريق المص، ومن ثم استخدمت الكاسات الزجاجية التي كانوا

يفرغون منها الهواء عن طريق حرق قطعة من القطن أو الصوف داخل الكأس. ولما جاء رسول الله ﷺ ووجدها في قومه أقرها، بل وتعالج بها وقال إنها خير ما يتداوى به الناس. وقال عليه الصلاة والسلام: "ما مررت بملأ من الملائكة ليلة أسري بي، إلا قالوا: عليك بالحجامة. وفي لفظ: مر أمتك بالحجامة".

وحتى ينظم تعاطي "الحجامة" تظل وسيلة علاجية فعالة، لكنها محفوفة بـ "المغامرة والمخاطرة"، كما تبقى "الرقية" وسيلة علاج شرعية، تعاني تجاوزات ودخلاء. فيما يبقى "الكي" المكروه قديماً، والمنبوذ حاضراً.

التدين التايواني!

هل في عالم اليوم مهنة أو مجال يملك حصانة من الدخلاء والغشاشين؟ إن كان موجوداً فالمنطقي أن يكون دينياً أو يقوم عليه المتدينون إن كانوا مسلمين أو يهوداً أو نصارى.

لكن هذه الفرضية في ما مضى من التاريخ وما هو حاضر لم تتحقق، إذ تنقل إلينا كتب التاريخ كيف اتخذ الأحبار الدين مطية للاسترزاق فحرفوا وبدلوا وأحلوا وحرموا، كما زخرت بذلك آي القرآن وكتب التاريخ.

وفي عهد الدين الإسلامي لم تكن التجربة صافية من الدخلاء بأثواب الدين، فجاءت مصطلحات عدة تختلف أسماءً، لكنها تتحد في تسويغ الخيانة والقتل بالدين، مثل "المنافقون" "الخوارج" "السبئيون" وغيرهم.

بل ظل أصحاب المهن المقدسة يبذلون جهوداً مضنية في سبيل نفي الدخلاء وفضحهم، خصوصاً في مجال "رواية الأحاديث" عن النبي ﷺ، فاخترعوا حينها علماً جديداً سُمي "الجرح والتعديل"، فهل نحن اليوم نحتاج إلى اختراع آخر يمثل "بف بافاً" يسحق

الدخلاء في المهن والمجالات الشريفة مثل: "الدعوة" و "الخطابة" و"الجهاد" و"الإغاثة" و"الرقية" و"طب الأعشاب"... ونحوها؟

ولا تزال العمليات الإرهابية التي تسفك دماء الأبرياء في العراق والسعودية وبلدان إسلامية وغربية أخرى تتابع إيقاع على صرخات الأيتام وآهات الثكالى المختلطة بأناشيد وأهازيج المجاهدين المزيفين!

ويشير الدكتور محمد بن يحيى النجيمي إلى أنه على "الرغم من أن الأصل في الذين يحملون اسم الدين أن يمثلوه بأخلاقهم وسلوكياتهم قبل أن يتحدثوا عنه بألسنتهم، إلا أننا مع شديد الأسف نرى هذه الأيام دخلاء كثراً على الدين أساؤوا إلى الدين وحملته، ويأتي في طليعة هؤلاء المفجرون والمخربون والساعون في الأرض بالفساد".

واعتبر "التدين والالتزام بأحكام الدين صفة عظيمة حسنة بل هو المطلوب شرعاً قال الله – تعالى–: «فاستقم كما أمرت» (هود: ١١٢). وعن أبي عمرة – رضي الله عنه – قال: قلت: يا رسول الله، قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً غيرك. قال: «قل آمنت بالله ثم استقم» أخرجه مسلم في الصحيح. إلا أن بعض الناس يفهم حقيقة التدين فهماً خاطئاً، فتراه صحيح العقيدة لا يرتكب الشركيات ولا المكفرات، ويصلي الصلاة، ويؤدي الزكاة، ويصوم رمضان، ويحج بل ويلتزم بسنن كاللحية وعدم الإسبال، ولكنك إذا عاملته في بيع أو شراء وجدته يغش ويكذب، بل إذا تزوج وجدته

يضرب زوجته ويعاملها معاملة سيئة، وتراه مكفهر الوجه، لا يبتسم".

وأضاف أن تلك الممارسات كلها "مخالفة لحقيقة التدين، فلو كان صاحب خلق ودين لما غش، لأن الرسول صلى الله عليه وسلم يقول: «من غشنا فليس منا» ويقول: «أتدرون من المفلس؟ قالوا: المفلس من لا دينار له ولا درهم. قال: بل المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة وحج، ويأتي وقد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطي هذا من حسناته وهذا من حسناته، فإن فنيت قبل أن يقضي ما عليه أخذ من خطاياهم، فطرحت عليه، ثم طرح في النار».

وتأتي المفارقة في نظر النجيمي في أن "الدين في الإسلام مرتبط بالمعاملة، ولهذا يقول الله: «إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر» فصلاتك إذا لم تثمر انتهاءك عن المنكر، فإن فيها ضلالاً كبيراً، ويقول صلى الله عليه وسلم: «من لم يدع قول الزور والعمل به، فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه» ويقول: «رب صائم ليس له من صيامه إلا الجوع، ورب قائم ليس له من قيامه إلا السهر».فكثير من الناس يعتقد أن الصيام هو الإمساك عن الأكل والشرب وبعض المحرمات، ولذلك تجد بعض الصائمين يمارسون المنكرات، ويأكلون المحرمات، ولو صاموا حقيقة ما فعلوا ذلك".

وأبدى أسفه لأن النماذج التي أشار إلى بعض صفاتها موجودة – كما يقول – في مجتمعنا "فتجد شخصاً ظاهره التدين، وعندما

تتزوجه فتاة مسكينة منخدعة بمظهره تجده عكس ذلك تماماً. وأذكر مرة في أحد معارض السيارات أن شخصاً يظهر عليه التدين بل يؤم الناس، يبيع سيارات مستعملة، فاكتشف الناس بعد فترة من الزمن أنه كان يبيعهم سيارات معيبة، وخدع الناس بمظهره".

يغيب عن العمل لأنه صائم "عاشوراء"!

وزاد "وفي إحدى الوزارات كان هناك موظف يراجعه الناس من مناطق بعيدة، يأتون من عسير والقصيم والشمال، وكان الوحيد الذي بيده إنهاء مصالحهم، وهذا بطبيعة الحال من عيوب الدوائر الحكومية، التي تسند الأمر إلى شخص بعينه، فإذا غاب تعطلت مصالح الناس، ليس هذا هو المقصود وإنما المقصود أنه تغيب عن الحضور، وكان ذلك يوم السبت فسألوا عن سبب تغيبه، فقال لهم مدير مكتبه: انه صائم يوم عاشوراء، وإنه سيغيب يومين آخرين لأنه يطبق الأفضل في هذه السنة فهو يصوم يوم عاشوراء ويوماً قبله ويوماً بعده، ترك الواجب وهو عمله، وفعل السنة فارتكب إثماً، إضافة إلى دعاء الناس عليه، فقال المراجعون بصوت واحد: لا تقبل الله منه".

وإذا كانت أمثلة الغش باسم الدين في المهن والمجالات يصعب حصرها والتمثيل عليها، فإن أستاذ العقيدة في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية – فرع القصيم الدكتور ناصر العقل تجاوز تلك الأمثلة إلى الحديث عما هو التدين الحقيقي والمزيف

قائلاً: "أول حقيقة لبلوغ المراد الشرعي بالتدين هي صلاح القلب، وصلاح القلب لن يكون إلا بالعقيدة الصحيحة والاستقامة على دين الله التي لا تكون إلا بمقتضى العمل بشرع الله وبسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، ولا بد أن تتحقق أركان العبادة في قلب المسلم بمحبة الله وتعظيمه جلَّ وعلا في أسمائه وصفاته وأفعاله، كذلك من حقائق التدين ومظاهره التعبد لله بما شرع، فالتدين الحقيقي هو أن يحقق العبد العبادة على منهج سليم وفق ما شرع الله سن رسوله صلى الله عليه وسلم، وتتجلى حقيقة التدين بعد إقامة الفرائض وأداء الواجبات بعمل السنن والنوافل والأعمال الصالحة التي يجرُّ بعضها؛ إلى بعض فالحسنة تدفع إلى الحسنة".

وتابع: "كثير من الناس يفقد حقيقة الورع، حتى وإن تدين ظاهراً؛ لأن الفارق بين التدين الحقيقي والتدين العاطفي الذي لا يوزن بميزان الشرع هو الورع، ولهذا فإن الخوارج يعتبرون نموذجاً لمن سلك مسلك التدين العاطفي أو التدين بغير ورع، فتدين الخوارج تدين بغير ورع".

وفسر العقل ظاهرة التطرف والعنف التي اجتاحت العالم الإسلامي في السنوات الأخيرة بأنها "امتداد لهذا التدين المزيف الذي يقوم على العاطفة وليس على أسس شرعية، فأدى هذا التدين غير الراشد إلى سفك الدماء والاعتداء على الأموال والأعراض بدعوى الغيرة على الدين وبدعوى الجهاد وما هي بغيرة على الدين ولا جهاد، وإنما هو تدين مزيف وارتكاب للمحرمات،

لقد جاء الدين بحفظ الضرورات الخمس: الدين والنفس والعقل والعرض والمال، وهذه الضرورات الخمس اتفق العلماء والعقلاء على ضرورة حفظها وذلك هو حقيقة التدين".

بيعة رضوان جديدة

في وقت أعلنت فيه صحيفة غيلاندز بوستن الدانماركية والبعثات الدبلوماسية الدنمركية في أنحاء إسلامية وعربية اعتذارها وتأكيدها على احترام مشاعر المسلمين الذين سخرت بنبيهم في رسوم كاريكاتورية عام ٢٠٠٦، أخذت حدة الغضب الإسلامية في الانخفاض، حتى في السعودية التي قاد مواطنوها عبر وسائل الاتصال والمنتديات الحملة بصورة دفعت شعوباً إسلامية أخرى إلى ترديد صداها.

غير أن السعوديين الذين امتنوا لقيادتهم استنكارها الشديد للنيل من خاتم الأنبياء ﷺ لا يزالون يطالبون بأكثر من مجرد اعتذار وصفه بعضهم بـ "المراوغ والخجول".

ومع أن الإجماع ساد بين السعوديين على أهمية محاسبة الجريدة التي نالت من شخص نبيهم بطريقة سلمية وحضارية قبل تراجعهم عن قرار المقاطعة، إلا أن أصواتاً آخذة في الازدياد اتجهت إلى الدعوة بعقلنة حملة المقاطعة وتأطيرها بعمل مؤسسي، يترجم في دعوى قضائية أو تجريم دولي، وهذا الأخير تعهد به

وكيل وزارة الخارجية في السعودية الدكتور نزار عبيد مدني، وكشف عن تشاور بين منظمة المؤتمر الإسلامي والجامعة العربية بمتابعة سعودية لتدويل موضوع رفض الإساءة إلى النبي العظيم.

ومن بين هذه الأصوات مشككون في جدوى المقاطعة نفسها على اعتبار ضررها أكثر من نفعها، إذ تعتقد هذه الشريحة أن أصوات النابذين للبضائع الدنمركية قد يسيء المجتمع الأوروبي فهمها، ولهذا ينصح الدكتور صالح الوهيبي الحكومات الإسلامية بـ "لزوم الحياد في مقاطعة شعوبها البضائع الدنمركية".

ويأتي ذلك في وقت لوح فيه الاتحاد الأوروبي بلي ذراع الحكومات المشجعة على المقاطعة بقوانين منظمة التجارة العالمية.

وطائفة من هذا الفريق لا تنتقد فقط عشوائية المقاطعة وأنها أصبحت ميداناً للمزايدات بين الشركات حتى تلك التي تبيع الأسماك السعودية (!!)، ولكنها أيضاً ترى منتجات الدولة المطلوب مقاطعتها في السعودية، إنما هي في واقع الأمر لوكلاء سعوديين ستلحقهم أضرار بالغة من دون ذنب.

وربما هذا الذي دفع الشركات السعودية المتهمة بأنها تبيع بضائع دنمركية إلى تكذيب دعاوى المطالبين بالمقاطعة، الأمر الذي أوقع رجل الشارع العادي في حيرة.

فالمواطن إبراهيم (٣٥عاماً) أمام أحد الأسواق المركزية في شمال الرياض قال لـ "الحياة": "أصبحت محتاراً بين ما يشاع في

المنتديات وعبر رسائل الجوال من أن الشركة (س أو ج) أصولها هولندية، وما بين نفي الشركة ذلك في إعلاناتها عبر الصحف المحلية، فأنا لدي رغبة أكيدة في مقاطعة أي بضاعة دنمركية، وفي الوقت نفسه اعتادت أسرتي على استخدام بعض المنتجات المختلف فيها"!

أما أصحاب المراكز التجارية المتوسطة فإنهم ليسوا قلقين كثيرا كما يقول عامل بقالة في حي النزهة رحمة الله إقبال "لا مشكلة لدينا، فمعظم البضائع التي يقاطعها الناس لدينا في السوق بدائل عنها".

أما كيف تصرفت الشركات في المنتجات الدنمركية التي لديها سابقاً، فإن الاعتقاد السائد بين أصحاب المراكز الكبرى أن "المقاطعة لن تدوم طويلا، وبالتالي فإننا – كما يقول أحدهم – قمنا بتخزين البضائع خارج المراكز التجارية، لإعادتها وقت انتهاء المقاطعة".

أما الذي يعده فيصل محمود (٢٢ عاماً) من إحدى الجمعيات الخيرية حلاً جيدا هو " ما قامت به إحدى الشركات الوطنية التي شحنت إلى الجمعية بعض البضائع التي يقاطعها الناس، وطالبتنا بتوزيعها على الفقراء".

مقاطعة بصورة قبر النبي!

لكن الشاب عبد الله العثمان (٢٨عاماً) فإنه كما يقول لـ "الحياة" قرر أن يتفاعل مع حملة المقاطعة بطريقة أجدى في نظره وأنفع.

ويضيف: "عندما صعدت وسائل الإعلام وبعض الدعاة الأخيار الحملة ضد الصحيفة الدنمركية وطالبوا بمقاطعة البضائع، فكرت ماذا يسعني عمله من أجل نصرة حبيبي رسول الله؟ كان السؤال شديد الإلحاح علي لأنني بالصدفة كنت في إجازة عيد الأضحى في المدينة المنورة وزرت قبره عليه الصلاة والسلام، وعدت إلى مدينة الرياض وكل قلبي اشتياق وحب لهذا الرسول العظيم، فكم تمنيت أن أراه أو أتحدث إليه، وكم سحت بخيالي أمام قبره محاولا خرق كل الحجب لأتخيل وجهه المنير وسمته الجميل".

وأضاف: "قضاء الإجازة في مدينة النبي صلى الله عليه وسلم وزيارة آثار الصحابة وغزواته معهم جعلتني أعود إنساناً آخر أكثر حباً وقرباً من هذا النبي الكريم، لذلك قررت اللجوء إلى الأعمال الفنية في أسواق مدينة الرياض أبحث عن أي لوحة تحمل دلالة ترمز لهذا النبي لأحيي ذكره في أسرتي وبيتي، بحثت وكان الله في عوني عندما فاجأني عامل في إحدى المحلات بأن لديه لوحة جميلة لـ "قبر النبي"، طرت فرحاً بها واشتريتها من دون تردد وعلقتها في صالة الجلوس، فكأنه عليه الصلاة والسلام أحد جلسائنا، نلتفت إلى قبره فنصلي عليه ونذكره ويزداد حبنا له".

طفلة تظن النبي حياً!

العثمان الذي يوصي القراء بالاقتداء بتجربته قال إنه اكتشف أن معلومات ابنتيه فاطمة (٩ أعوام) وعائشة (٨ أعوام) لم تكن

جيدة عن نبيهما، فبمجرد أن أخبرهما بأن اللوحة تشير إلى قبر النبي (ص) بدأتا تسألانه كثيراً عنه وعن حياته، واكتشف أن ابنته الصغيرة لا تزال تعتقد أن الرسول لا يزال حيا!

وزاد: "أحزنتني ابنتي الصغيرة لما قلت لها: "هذه صورة لقبر رسول الله صلى الله عليه وسلم" فنظرت إلي بدهشة وحزن قائلة: بابا الرسول مات؟! فأجبتها يا حبيبتي مات قبل سنين كثيرة جدا ولكنه حي في الجنة وفي قلوبنا" فصمتت وبقيت حزينة دقائق!".

أياً كان اختلاف هذا أو ذاك في الكيفية التي يرد بها المسلمون على من أساء لنبيهم، تظل الحقيقة أن الإساءة الدنمركية أسفرت عن شيء جميل هو: حب مختلف فئات المسلمين لخاتم الأنبياء محمد عليه الصلاة والسلام، بعد فترة من الركود أو همنا الإعلام العربي فيها أن نانسي عجرم وهيفاء وهبى وحدهما من يعد أحبابهن بالملايين!!

أم القضايا: سد الذرائع

قاعدة سد الذرائع مثل عدد من القواعد الفقهية التي يتجاوز الجدل حول آليات إعمالها على واقع الأرض مبدأ مشروعيتها من الأساس، كمفردة أضحت شبه مسلمة من قرون لدى شريحة عريضة من فقهاء المسلمين الذين حشدوا الأدلة تلو الأخرى محاولين إثبات أنها وإن كانت في الإصطلاح محدثة إلا أن مضمونها كان نصاً تشريعياً.

لكن هذه القاعدة ونظيرات لها، كثيراً ما كن سيف الحجاج أمام نصف المجتمع (المرأة)، وعبثا يحاول البعض إعادة ذلك إلى فهم شريحة قليلة من طلبة العلم وتفسيراتهم لها.

فهذا محمد بن قيم الجوزية (٦٩١-٧٥١ هـ) الذي يصنف رغم حنبليته واحدا من أبرز الشخصيات الإسلامية التي تحررت من أسر التقليد؛ عدّ لهذه القاعدة (٩٩) شاهداً لم تكن كل الذي ظفر به مما يعزز في نظره (سد الذرائع) بل اقتصر على ذلك العدد تفاؤلا بأسماء الله الحسنى التي هي الأخرى (٩٩) ومن أحصاها دخل الجنة(!) ليس ذلك وحسب بل مثلت الشواهد ذات العلاقة بالمرأة منها قدراً لا بأس به.

إذا تجاوزنا الخلفية التاريخية الخالية نجد توافقا إلى حد كبير للمعاصرين مع الغابرين، ما يطرح تساؤلات عديدة عن ماهية دور فقهاء اليوم .. هل هو مجرد قص ولصق لما قد قيل، أو أنه ثمت فلترة، وما قيمة الإقرار بأن توسعا يجري في الأخذ بقاعدة سد الذرائع عندما يستمر ذلك التوسع في الزيادة لا التناقص؟

فليس المتحاورون في أول حلقة من الحوار الفكري في السعودية -الذي انطلق عام ٢٠٠٢- وحدهم من يقر بأن سد الذرائع يجري التوسع فيه، ما دفعهم إلى الوصية بالكف عن ذلك، بل إن وزير الشؤون الاسلامية في السعودية صالح بن عبد العزيز آل الشيخ هو الآخر أقر بأن الحاجة قائمة "إلى دراسة هذه القاعدة وفق الأطر فيما يسد وما لا يسد. وفقاً للمصالح العصرية. لأن سد الذرائع تختلف باختلاف الزمان والمكان فلابد من إعادة دراستها. ولعل يكون هناك بحوث جامعية عصرية لدارسي الماجستير والدكتوراه تعالج هذه القضية".

بينما تجاوز الدكتور وليد فتيحي الناشط الإسلامي السعودي المطالبة بإعادة دراسة (سد الذرائع) إلى الزعم بأن "جوهر التشدد وأساسه التوسع في سد الذرائع والإفراط الشديد في التحذير من كل فكر جديد، وبذلك تجمد الإسلام وتجمد المسلمون عن الخوض في كثير من الأمور التي يحتاجها الناس في حياتهم فتعارض الدين مع فقه الواقع والمصالح والعقل".

فوبيا المرأة الفاتنة

ورأى في حديثه إلى "الحياة" أن "عوامل عديدة أدت إلى انتشار مفهوم الغلو في سد الذرائع تحدث عنها علماء معاصرون كثيرون ومنهم الدكتور عبد الحليم محمد أبو شقه في موسوعته "تحرير المرأة في عصر الرسالة" وهي دراسة مُوَسَّعة عن المرأة جامعة لنصوص القرآن الكريم وصحيحي البخاري ومسلم وقد قضى الدكتور عبد الحليم أبو شقه ما يربو على خمسة عشر عاماً يجمع مادتها وينقحها ويصححها ويؤصلها وقد قدم له وزكى عمله اثنان من أجلاء العلماء المعاصرين وهم فضيلة الشيخ محمد الغزالي يرحمه الله وفضيلة الدكتور يوسف القرضاوي يحفظه الله".

وأشار إلى أن الغزالي وصف الكتاب بأنه " يعود بالمسلمين إلى سنة نبيهم صلى الله عليه وسلم دون تزيد ولا انتقاص، إنه كتاب وثائق، ومؤلفه عالم غيور على دينه رحب المعرفة متجرد لنصرة الحق كره الجدل الذي برع فيه أنصاف العلماء، وآثر مسلكاً قائماً على عرض المرويات كما استقاها من البخاري ومسلم، وقلما يعرض غير ما رواه الشيخان".

والغلو الذي يقطع بوجوده في قاعدة سد الذرائع، وأن ذلك مرده إلى "مجافاة التطبيق للشروط التي قررها الأصوليون لإعمال القاعدة (موجودة في كتب أصول الفقه)، وسوء فهم معنى فتنة المرأة، وسوء الظن بها واستضعافها، بالإضافة إلى الغيرة المريضة،

ودعوى فساد الزمان، كما جرى تسخير مجموعة من الآيات والأحاديث والأخبار، وأسيء تأويلها، وأحاديث ضعيفة أو موضوعة وأخبار ضعيفة، وفي الكتاب أتيح المجال لتفصيل موسع".

ومن ناحيته يعتقد أستاذ الشريعة بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية سامي الماجد أن "قاعدة سد الذرائع أصبحت ذريعة لفئتين من المتشددين في تطبيقها والمغالين في رفضها، فبينما يوغل الأولون بإقحامها حيث لا محل لها، يتخذها الآخرون ذريعة لإسقاط العديد من الأحكام الشرعية بزعم أنها لم ترد نصوص شرعية صريحة بها، مثل دعواهم بجواز اختلاط المرأة بالرجال بينما الحق وسط بين التوجهين المشار إليهما".

واعتبر أصل قاعدة سد الذرائع متفقاً عليها بين أهل العلم، "فكل ما يفضي إلى الحرام قطعاً فهو حرام عند أهل العلم جميعاً، ولا خلاف بينهم في هذه الصورة، وكذلك ما نصَّ الشرع على تحريمه مما يفضي إلى الحرام غالباً؛ كالخلوة مثلاً، فهم متفقون على تحريمها؛ عملاً بالنص، لا إعمالاً لسد الذرائع".

ماهي الذريعة التي يجب أن تسد

وأضاف أن " جمهور العلماء ذهب إلى العمل بسد الذرائع فيما يفضي إلى الحرام غالباً، وإن كان لا يُقطع بإفضائه إليه؛ استشهاداً بنهي النبي صلى الله عليه وسلم عن الخلوة بالمرأة الأجنبية، وبنهيه عن الدخول على المغيبات، وعن سفر المرأة بلا محرم، فهذه الصورة

لا تفضي إلى الحرام والمفسدة قطعاً، وإنما تفضي إلى الحرام في الغالب، فاعتُبِر، وإن كانت أحياناً لا تقع بها فتنة ولا فاحشة. ثم وقع خلافهم فيما دون ذلك مما تردد فيه الأمر: هل يفضي إلى الحرام أم لا؟ أو تساوى فيه الاحتمالان؟ فمنهم من يعمل القاعدة فيه، ومنهم من لا يعملها."

وزاد أن "الذرائع الضعيفة والتهمة البعيدة، لا ينبغي أن تُعمل فيها القاعدة فتُسدُّ؛ لأنَّ العبرة بالغالب، وهي في الغالب لا تُفضي إلى المنكر، فمنعها ضربٌ من التضييق، وإفراطٌ في إعمال (سد الذرائع)".

وانتهى إلى أن الذريعة التي يجب أن تُسد هي "الخطوة القريبة التي تفضي إلى المنكر يقيناً أو في غلبة الظن، أما الخطوات البعيدة التي بينها وبين الحرام خطوات أدنى فتحريمها بحجة سد الذرائع هي نفسها ذريعة إلى التشديد والتضييق يجب أن تُسد؛ فمثلاً: يحرم الإسلام من الاختلاط ما هو مظنة المزاحمة والخلوة؛ لكن لا يجوز بحال أن نحرِّم على الناس أن يمشوا جميعاً ـ رجالاً ونساء ـ في طريق واحد، أو نحرم عليهم مجرد الاجتماع في مكان واحد يحويهم جميعاً!"

وأكد أن "النبي ﷺ لم يمنع النساء من المرور بطريق يمر به الرجال، وإنما أمرهن بالبعد عن مزاحمتهم؛ منعاً من تماس الأجساد، فقد صحَّ عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال ـ لما خرج

الرجال والنساء من مسجده جميعاً: "لا تُحقِقن الطريق، ولكن عليكن بحافة الطريق". فهو - كما ترى - تجنب للمزاحمة والاختلاط الذي يفضي إلى الفتنة، لا تجنبٌ لمشي الرجال والنساء في طريق واحد".

الجنس المجند!

قليلاً ما يرتدي "الجنس" بزة سياسية بيد أنه كثيرا ما يكون أمضى من المدرعات وربما الصواريخ أيضا إذا ما تم تجنيده.

قد لا يكون ذلك منطبقاً تماماً على نصيب "نكاح المتعة " في إذكاء روح الفرقة بين طائفتي السنة والشيعة، غير أن هذه المسألة حققت إنجازات مهمة في مضمارها، أبهرت بفاعليتها كثيرا من المراقبين .

إذا تبين ذلك فإن من البدهي أن تكون مسألة بهذا الحجم من (الخطورة) حاضرة في أذهان الباحثين عن محبطات التقريب بين المذاهب.

وإذا ما تجاوزنا تفاصيل تحليل الشيعة لنكاح المتعة، وما ترسخ في ذهنية السنة من فهم لهذا التحليل، وما يحاك حول ذلك من الغرائب، فإن (غير المتخصص) سيقف حائرا لدى اكتشافه أن هذا النوع من (النكاح) سبقت السنة الشيعة إلى القول بجوازه على حدٍّ قول بعض الباحثين، فالمفتي السني الشهير الدكتور يوسف القرضاوي ضمن دعواته المتكررة إلى أن يتركز الحوار بين السنة والشيعة "لا على نقاط التمايز والاختلاف. وخاصة أن معظم نقاط

الاتفاق في الأمور الأساسية التي لا يقوم الدين إلا بها، بخلاف نقاط التمايز، فجلها في الفرعيات "؛ رأى أن " فقه السنة وفقه الشيعة – يتقاربان إلى حد كبير؛ لأن المصدر الأصلي واحد، وهو الوحي الإلهي المتمثل في القرآن والسنة، والأهداف الأساسية والمقاصد الكلية للدين واحدة عند الفريقين، وهي: إقامة عدل الله ورحمته بين عباده".

وأضاف: "كثير من الآراء التي تعتبر شاذة عند أهل السنة مما يأخذ به الشيعة، يوجد بين أهل السنة من قال بها؛ إذا أجدنا البحث والتنقيب"، واتخذ نكاح المتعة مثالاً على ذلك وقال: "خذ أشهر مسألة في الفقه حدث فيها الاختلاف بين المذهبين، وهي: زواج المتعة، فقد قال بها حبر الأمة ابن عباس، وإن قيل إنه رجع عنها، ولكن ظل عدد من أصحابه في مكة وفي اليمن يفتون بها، مثل عطاء وسعيد بن جبير وطاووس رضي الله عنهم جميعا".

أما الدكتور محمد النجيمي فأشار إلى أن"الاختلاف في الفقة سهل وسائغ .. فنجد مثلا نكاح المتعة يحرمه أهل السنة بالاتفاق، نظرا للأحاديث الصحيحة الصريحة التي تحرمه، وقد خالف في ذلك بن عباس رضي الله عنه، وعليه أكثر أصحابه كعطاء وطاووس وبه قال بن جريج .. فيرون أن نكاح المتعة للضرورة والحاجة الشديدة، كالميتة ولحم الخنزير، وبالتالي فإن الصحيح أن ابن عباس لم يرجع عن قوله هذا، وقد حكم بن عبد البر في الاستذكار بضعف الآثار التي ورد فيها رجوع ابن عباس عن القول بإباحة المتعة.

الفرق بين التحليلين

والفرق بين إباحة بن عباس والشيعة للمتعة أن ابن عباس يبيحها فقط للضرورة والحاجة، ففي صحيح البخاري عن أبي جمرة قال "سمعت بن عباس يسأل عن متعة النساء فرخص، فقال له مولى له: إنما ذلك في الحال الشديد وفي النساء قلة ونحوه .. فقال بن عباس: نعم".

أما الشيعة فإنهم يجيزونه في حال السعة والاختيار، ولكن على الرغم من ذلك فإن أهل السنة لا يكفِّرون من قال بإباحة المتعة، بل إنهم في كتبهم يقولون: لو أن إنسانا تزوج امرأة بالمتعة فإن ذلك يعتبر شبهة يدرأ بها الحد ولا يعتبرونه زانيا .. ويلحقون ولد نكاح المتعة بأبيه".

ولدى سؤال (الحياة) له عن السر وراء الضجيج الذي يثيره أهل السنة حول هذه المسألة هل لأنهم يعتبرون ابن عباس شيعياً مثلاً؟ .. أجاب ضاحكاً: "ابن عباس بالطبع ليس شيعياً، أما الضجيج المثار من قبل السنة حول هذه المسألة فلأن الغلاة من الشيعة توسعوا فيها توسعاً أوصلها إلى حد الدعارة، فإن الغلاة منهم أباحوا التمتع بالمتزوجة".

وبينما يتهم علماء من الشيعة السنة بأنهم يجيزون (المتعة) ولكن بطرق ملتوية، كجواز المسيار في الخليج والعرف في مصر والمغرب العربي، وفريند في أوربا؛ يؤكد النجيمي أن "الإشكال في

تحديد المدة في المتعة وفي الشهود " معتبرا هذه الحجة "مغالطة فإن زواج المسيار وفريند مستكملان للشروط .. غير أنه تتنازل الزوجة عن شيء من حقها "

متعة بأسماء مستعارة!

ويتهم الباحث الشيعي عبد المحسن الدعيمي علماء السنة بأنهم أرادوا تحليل المتعة فتحايلوا عليها بإجازتها تحت غطاء (زواج المسيار) ويضيف: " في مصر والسعودية وبعض الدول الإسلامية الأخرى يطبق زواج المتعة تحت أسماء مستعارة، ففي السعودية زواج المسيار أو الزواج الصيفي وقد عبر عن هذا الزواج مقال الدكتور صالح الفوزان قائلاً (قضية الزواج في الخارج تعبر عن رغبة الرجل المسافر وحده في تحصين نفسه من الانحرافات) وفي مصر سميّ (الزواج البديل، السري، العرفي) وقد قال الدكتور أحمد شلبي عن هذا الزواج إنه زواج استكمل أركانه، وهو عقد شرعي بدون توثيق.

وقال عنه إمام الأزهر الراحل الشيخ جاد الحق: "إنه زواجٌ صحيح مستوفي الشروط وليس التوثيق لإثبات صحة الزواج".

وفي بعض دول العالم الإسلامي يتزوج الرجل من امرأة بنية طلاقها بعد فترة قريبة جداً حسب إشباع رغبته الجنسية أو انتهاء عمله في تلك المنطقة وذلك حسب فتاوى علماء المنطقة.. فلنتأمل هذه الزيجات كيف تصبح حلالاً عند أهل السنة والمتعة التي تقابلها

حرام عند الشيعة..!! وقد قال سبحانه وتعالى في محكم كتابه المجيد. ﴿ **وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ** ﴾ (سورة النحل: ١١٦).

ابن عباس لم يحلل المتعة!

من جانب آخر رجح القاضي في المحكمة العامة في الرياض الشيخ سليمان الماجد رجوع ابن عباس عن تحليل "نكاح المتعة " وقال: "ثبت تحريمه إياها في آخر عهده " وأضاف: "لو كان الاختلاف بين السنة والشيعة على قضية شرعية كالمتعة لكان الأمر أهون إلا أنه في قضايا تنسف الدين أصولاً وفروعاً".

وعارض الماجد تصنيف (الفرقة الزيدية ـ أحد فرق طائفة الشيعة) ضمن الشيعة "فهي وإن كانت محسوبة على الشيعة إلا أن اتفاقها مع أهل السنة والجماعة أكبر من اتفاقها مع الشيعة، وإنما الشيعة الذين نعنيهم فهم الإمامية".

وحول ما إذا كان بالفعل علماء السنة يتفقون مع الشيعة في الفقه إلا في يسير من القضايا استنكر ذلك ورأى أن ليس من أهل السنة "من يعتد بفقهاء الشيعة الإمامية، ولا من يذكر آراءهم ويستشهد بها إلا على سبيل بطلانها".

السياسة هي التي فرقت

هذا وكانت (الحياة) قد شهدت ندوة حوار بين السنة والشيعة استضافها الدكتور راشد المبارك في (أحديته) بالرياض؛ اتفق

أغلبية الحضور فيها على أن السياسة في الماضي هي التي أذكت الخلافات التي عدها بعضهم بسيطة، ما جعلها تأخذ أبعادا خطيرة أكبر من حجمها، في حين اتفقت الطائفتان في تلك الندوة على أن كلتيهما بحاجة إلى إعادة النظر في سلوكها تجاه الأخرى .

وقال الشيخ حسن الصفار الذي كان ضيفا على الندوة في إجابة عن سؤال لـ (الحياة) "لقد بات مناخ الحوار في الوقت الراهن أفضل منه في أي وقت مضى".

الخطاب النسائي مهدد بالسطحية وتسلط الذكور

تتميز مفردة (المرأة) في السعودية بحساسية مفرطة، قل أن تضاهيها مفردة أخرى، إن على الصعيد التنظيري أو واقع الممارسة. وفي العالم العربي لم يكن الواقع في تقدير البعض أحسن حالا بل العكس. فكما تقول الاستشارية الاجتماعية والكاتبة السورية الدكتورة ليلى الأحدب: "المجتمعات العربية ما زالت مجتمعات أبوية تسيطر عليها الثقافة الذكورية، وينعكس هذا سلبا على تنشئة الأولاد والبنات في الأسرة والمدرسة، ومع وجوب اعترافنا بالفروق الفطرية بين الجنسين، إلا أن المجتمع يزيد من قيمة هذه الفروق وغالبا ما يكون هذا لحساب إعلاء قيمة الذكر على الأنثى".

ومع ترقب الأوساط النسائية في السعودية لانعقاد الدورة الثالثة للحوار الوطني بالمدنية المنورة ٢٠٠٣، والتي تم تخصيصها لمناقشة قضايا (المرأة) في السعودية؛ ازداد توجس الأوصياء على المرأة بمختلف توجهاتهم الليبرالية والإسلامية أي الفريقين يكسب الجولة. وأن تشهد الساحة جدلا بين أقطاب التوجهين أمر بدهي إلا أن ما قد يصعب تصوره لدى البعض هو تحول دائرة الصراع .. أوالتجاذب إلى باحة المدرسة الواحدة.

وهذا بالضبط ما حدث عندما احتدم النقاش بين منسوبي التيار الإسلامي من الجنسين لدى تقويمهم لـ (عمل المرأة الإسلامي في السعودية) فوجه النساء التهم صريحة إلى الرجال بالحد من نفوذهن وتحركهن في مجالات شتى كان من واجبهن خوضها واقتحامها، مع خلاف بين الرجال أنفسهم في المجالات ؛ متخذين من (التعميم) حصنا يلوذون به عن التفاصيل التي قد تثير حفيظة شريحة هنا أو هناك.

وهو ذات (المطب) أو الهوة التي سقط فيها عضو هيئة كبار العلماء السعودي الشيخ عبد الله المطلق إذ تساءل بكل براءة عما وراء غياب السعوديات عن إعداد وتقديم البرامج الهادفة في القنوات الإسلامية الفضائية وفي إذاعة القرآن الكريم، مسفها ذرائع المانعين من ذلك بحجة أن (صوت المرأة عورة)، موضحا أن نصوصا كثيرة من القرآن والسنة تكشف لمن يتأملها أن صوت المرأة ليس عورة . الأمر الذي لم يرق لبعض من يرون هذه المسألة خطا أحمر يحرم تجاوزه، إذ يفضي - بحسبهم - إلى تنازلات لا تنتهي.

ولدى الحديث عن العمل الإسلامي النسائي في السعودية تبرز العديد من الإشكاليات التي تفرضها البيئة والتقاليد، إلا أن الداعية أسماء الرويشد إحدى الداعيات المشهورات جداً على الساحة الشعبية في السعودية تدعو النساء إلى أن يتوجهن نحو (العمل المؤسسي) إذ تعتقد أن "أنجح وأقوى أسلوب للعمل الدعوي يتمثل في تحقيق منهجية العمل المؤسسي في تفعيل قضايا الدعوة العامة والخاصة، وذلك بتنمية المبدأ الجماعي في التفكير والعمل

والإنتاج بأسلوب العمل المؤسسي الذي صار أسلوب القوة والتحدي في هذا العصر".

وتبعا لذلك طالبت بإقامة "مؤسسات دعوية نسائية متخصصة تعتني بكل الجوانب المهمة في حياة المرأة المسلمة وتعالج قضاياها المعاصرة بجهود جماعية منظمة ومتخصصة علمياً وتربوياً وثقافياً وإدارياً؛ تساهم مساهمة فاعلة في توفير الحصانة الفكرية والعقدية في البناء التربوي الإيماني للمرأة وتوجد المحاضن التربوية التي تخرج المرأة الصالحة الواعية".

ويشاركها في ضرورة ما دعت إليه رئيس تحرير مجلة الأسرة الإسلامية الدكتور خالد القاسم الذي يرى أن "الاهتمام بقضية المرأة قد بدأ مبكرا مع الصحوة الإسلامية، فحظيت قضية المرأة باهتمام متزايد من قبل الدعاة والمصلحين سواء في الجانب الشرعي أو الاجتماعي، إلا أن غياب التنسيق بين المهتمين قد قلل من حظ مجالات خطيرة في الاهتمام" مشيراً إلى الجانب القانوني في حقوق المرأة وإعداد مواثيق إسلامية بخصوصها كمثال على الجوانب ذات الحظ الأقل في العناية رغم أهميتها.

القاسم جعل غياب التنسيق الذي دعا إليه عاملا هضم الدعاة والمصلحين حقوقهم بسبب ظهور اهتمامهم بقضايا المرأة ضيئلا أمام المراقب والمشاهد، فهو يعتقد أن "الدعاة والمصلحين لو اجتهدوا في تنسيق قضايا المرأة بكافة أبعادها وترتيب أولويات العمل الإسلامي من جوانبه المختلفة لكان ذلك كفيلاً بأن يظهر جلياً ما يقومون به من جهد في معالجة قضايا المرأة في المجتمع عبر مجالات مختلفة".

ومع أنه يرى ضرورة "إعادة ترتيب وتوحيد الجهود الإسلامية النسائية" إلا أنه قلل من إمكانية ذلك إلا إذا ساد التعاون بأقصى درجاته بين نشطاء الساحة الإسلامية أجمعين.

وأما الدكتورة نورة بنت عبد الله العدوان من جامعة الملك سعود فطرقت إشكال العمل الإسلامي النسائي في العالم العربي والسعودية من زاوية غياب الاستقلالية في البرامج والمخططات بوجه عام، وتذهب إلى أن "الهيئات والمؤسسات المعنية بالشأن الإسلامي ليس لديها تنسيق حول أجندة موحدة واضحة ومعلومة، ومعظم تحركاتها ينطوي على ردود أفعال التنظيمات المقابلة ودفاع في محاولة للمحافظة على المكتسبات والقيم".

بينما تقول في المقابل "معظم الهيئآت والمنظمات المهتمة بشأن المرأة في الدول العربية على اختلاف هويتها لديها أجندة موحدة فيما يتعلق بقضايا المرأة عدا المنظمات والهيئات الإسلامية".

وتعزو ذلك إلى كون "المنظمات النسائية في الدول العربية تستمد أجندتها من المنظمات والهيئآت الدولية، حيث تدفع الهيئآت الدولية والدول الغربية ومؤسسات خاصة مستقلة مبالغ كبيرة للمنظمات النسائية في العالم الإسلامي التي تتبنى الأجندة النسوية الغربية.

وعلى غرار ذلك طالبت هي الأخرى "تحديد أجندة المؤسسات الإسلامية النسائية في السعودية وفقاً للمشكلات الحقيقية التي تعاني منها المرأة محلياً، بالإضافة إلى الأطروحات التي تتبناها

المنظمات المخالفة، وتحديد الأولويات على ضوء ذلك من أجل إيجاد برنامج عمل منظم يجمع الجهود ويفعلها لتحقيق المأمول منها".

بينما تطلعت إلى "هيئآت دعوية إسلامية تعترف بأهمية مشاركة المرأة في الشأن العام والمبادرة بتمثيلها في المجالس والنقابات والجمعيات، وذلك للدفع بأجندة هذه الهيئات من خلال القرارات والقوانين والتشريعات المحلية".

وتؤكد العدوان أنها تدعو لكل ذلك في وقت ترصد فيه مؤخرا وبشكل واضح وصريح ـ كما تقول ـ "الجهود الحثيثة لعدد كبير من المهتمات بالأجندة النسوية الغربية، لتطبيق بعض بنودها في السعودية تحت شعارات مختلفة، وبالعمل المنظم من خلال قنوات متعددة رسمية وشعبية".

وأما العائق في التنسيق بين الداعيات الإسلاميات في السعودية فأرجعته الداعية أسماء الرويشد ورئيسة اللجنة النسائية بمؤسسة الإعمار الخيرية إلى عدد من العوامل أهمها "ضعف الفهم للعمل المؤسسي لدى النساء وعدم استيعاب أهميته ومزاياه، وحداثة نشاط المؤسسات الدعوية المعاصرة وخاصة النسائية منها".

خطاب سطحي!

ومن خارج المؤسسات الدعوية النسائية انتقدت الكاتبة والأكاديمية السعودية نورة بنت خالد السعد " سطحية الخطاب الديني لدى المهتمات بالعمل الإسلامي النسائي واعتماده على إثارة المشاعر دون الاهتمام بالتعمق الفكري، في حين أن المأمول هو: مزج الخطاب بالطرح العقلي المعتمد على فهم النصوص الشرعية كما ينبغي، من

خلال عقد دورات لتعليم قواعد المحاجة بالدليل، لبيان الحق، ودفع الباطل، وعبر إقامة منتديات نسائية على الإنترنت لينمو الحس الحواري تدريجياً دون ضغط بسبب الوقت أو الخجل من المواجهة واقتراح لطرق طرح مثل هذه المواضيع والجدل العلمي المنتج".

وأما الأميرة الدكتور سارة بنت عبد المحسن بن جلوي آل سعود فتشير إلى أن "شراسة الصراع القائم حاليا بين المسلمين وأعدائهم وشراسة المواجهة، دليل كبير وواضح على مدى فاعلية تحقق الوجود الإسلامي على الساحة، وأن الدعوة الإسلامية قد تمكنت من إثبات الذات في معركة التحدي الحضاري والصراع الفكري والتخلص من مركب النقص أمام الحضارة الغربية وأطروحات العولمة".

فهي ترى أن العمل الإسلامي النسائي والرجالي رغم محاولات تفتيته وتقييده "قد تمكن من إيقاظ الحس الإسلامي، كما جدد الأمل بقدرة دين الإسلام على الثبات والمواجهة والتعامل مع المشكلات المعاصرة، وتقديم البدائل المناسبة، وحل المعادلات الصعبة".

ومع ذلك فإن سارة لا تنكر ضعف دور المرأة المسلمة المثقفة في الصراع الذي أشارت إليه.. وإن كانت تحمل الرجل جزءاً من ذلك الضعف أو الغياب .. وتقول: "من ينظر إلى ساحة العمل الإسلامي في هذا العصر يجد أن دور المرأة المسلمة المثقفة ما زال ضعيفا إلى حد ما، على الرغم من أهمية دورها وخطورته في هذه الأيام التي اشتد فيها الصراع وتعددت جبهاته وتنوعت أنواعه الفكرية والاجتماعية والسياسية، وتفاعلت فيه القضايا المطروحة فيما يتعلق بالمرأة والدعوة إلى تحريرها ومساواتها بالرجال".

وأكدت أن المرأة الداعية حتى في ظل احتدام الصراع والتدافع الحضاري الخطير ـ كما تصفه ـ "بقي تحركها محدوداً، يدور في فلك ضيق ونطاق محدود لا يكاد يؤثر في عملية تحريك عجلة الإصلاح الاجتماعي، ويوجهها الوجهة الصحيحة التي تعين على تحقيق الحصانة الفاعلة والتفاعل المنشود، فهي (أي المرأة الداعية) تكاد تكون غائبة عن ساحة الصراع، إذ تمارس دوراً محدوداً يتسم في غالبه بالارتجالية والانفعال وغياب التخطيط الواضح".

ورجحت أن المرأة "لم تعد قادرة بشكلها الحالي وجمهورها المحدود على المواجهة والصمود للتحديات المعاصرة، فضلاً عن معالجة القضايا المطروحة والتعامل معها بالشكل المناسب، بالإضافة إلى عدم تمتعها بالاستقلالية وخضوعها لسيطرة التنظيمات الرجالية مما قيد حركتها وفتح المجال واسعاً أمام التيارات الأخرى المدعومة داخلياً وخارجياً للتغلغل داخل بنية المجتمع واستقطابه لشريحة كبيرة من جمهور النساء وبخاصة الفتيات صغيرات السن مما يسر لها سلوك الطريق لإثبات وجودها وفرض مطالبها".

الأميرة سارة، وإن لم تدع صراحة المرأة الداعية إلى التمرد على سيطرة التنظيمات الرجالية التي رأت أنها قيدت حركتها، إلا أنها دعتها إلى" أن تثبت وجودها بقوة وقدرتها على المشاركة الفاعلة في توجيه المجتمع، وتصحيح مساره، وحمايته، وفق الضوابط الشرعية، وحقائق الواقع المعاصر".

"أزهر سعودي" يتجه نحو التحديث

انتزعت جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، شمال العاصمة السعودية الرياض مكانة فريدة بين الجامعات العالمية المماثلة، ناهيك عن أخواتها المحلية، وغدت كما يرى عدد من المختصين «أزهراً» جديداً في العناية بالدراسات الإسلامية، وفتح بوابات المعرفة مشرعة أمام الطلاب المسلمين في معظم أنحاء المعمورة.

ومع كثافة الحملة المضادة ضدها محلياً وعالمياً، منذ عام ٢٠٠٠، إلا أنها ظلت تفتخر بأنها «الجامعة التي لا تغيب عنها الشمس»، بفضل توزعها الجغرافي داخل السعودية وخارجها، الذي أثمر تخريج نحو ١٠٠ ألف طالب وطالبة. الذين يشبهون جامعة الإمام بالأزهر في اعتناء الأخير بالشريعة وعلوم اللغة العربية، وسيكون بوسعهم أن يربطوا بين الجامعتين في إطار آخر، هو الانتقادات المستعرة ضدهما في ما يقدمانه من أنشطة، وما يقررانه من مناهج، كما أن الجامعتين أيضاً وإن صدق بعض النقد الموجه إليهما، إلا أن إصرارهما على الثبات في رسالتهما كان محل تقدير كثيرين، وقاسماً مشتركاً بينهما.

وبينما يواجه الأزهر نقداً صارماً من التيار الإسلامي المصري، بسبب ما يعتبره تراجعا نسبياً للمؤسسة العلمية عن دورها واستقلالها، كما يشير الدكتور محمد العوا في كتابه أزمة «المؤسسة الدينية»، يطاول جامعة الإمام نقد مماثل أو أشد بسبب توسعها في العلوم غير الشرعية والعربية، إذ يرى عميد كلية الشريعة فيها سابقاً، الدكتور سعود الفنيسان أن «الجامعة انحرفت عن مسارها وضعفت بسبب إدارتها، والأحداث الإرهابية في بلدنا، التي حملها الإعلام ظلماً بعض مسؤوليتها، بزعم أنها أثرت في خريجيها والمنتمين إليها، وأنا أعتقد أن هذا من الأسباب التي ضربت الجامعة، حتى سبقتها جامعة الملك سعود حتى في العلوم الشرعية، ومن عوامل ضعف جامعتنا العريقة أنها تخلت عن رسالتها وتوجهت إلى المجالات المدنية التي لم تنشأ لها، تفتح كلية للحاسب وتفكر في كلية للطب وكلية للهندسة ما هذا الكلام؟ هذا خروج عن رسالتها». لكن الفنيسان وآخر يغفلون أن الأزهر الذي يعد أعرق مؤسسة علمية إسلامية على الإطلاق، غدت كلياته العلمية تمثل نسبة عالية في العدد الإجمالي الذي يبلغ ٤٣ كلية متوزعة في أرجاء مصر، استجابة لمتغيرات العصر وحاجة المجتمع.

ومن دون أن يعلن مدير جامعة الإمام محمد بن سعود الدكتور محمد السالم عن توجه أو خطة للتوسع في العلوم النظرية، بات واضحاً من خلال خطواته أنه يستهدف ذلك، وهو أمر يحسب له في نظر الكثيرين. بيد أن مؤثرين حوله أكدوا أن افتتاح الجامعة

لكليات في تخصصات مثل الحاسب، والطب (قريباً) لا يقدح في تخصصها الأبرز في العلوم الشرعية والعربية.

وفي زيارة قامت بها «الحياة» لكلية الدعوة والإعلام في الجامعة أخيراً، كشف عميدها الدكتور محمد الحيزان الذي جاء من الهيئة العليا للسياحة حديثاً، أنه أحال جميع مقررات قسم الإعلام السابقة إلى التقاعد!

وشاهدت «الحياة» طلاب القسم وهم في معامل التدريب على الجرافيكس، والإخراج الصحافي، والتلفزيوني الرقمي، بينما خصصة قاعة جانبية لتأهيل الأساتذة السابقين، لمحاولة مواكبة التحديث الذي يحاول أن يقنع زملاءه في بقية الكليات بجدواه. الحيزان الذي تبدو أفكاره بالنسبة إلى التقليديين من الأساتذة في الجامعة، «سياحية جريئة» في أحسن الأحوال، أطلعنا على ممر، قال إنه «سيصبح عما قريب متحفاً يؤرخ للإعلام والاتصال، صوراً ومقتنيات»، وغرفة تشهد أعمال صيانة مكثفة، أفاد بأنها «ستكون عبارة عن أستوديو بث تلفزيوني افتراضي، يتدرب فيه الطلاب، وتستفيد الجامعة منه ما أمكن». وأكد أن ٦٠ طالبة في مرحلة الماجستير والدكتوراه، هيأت لهن كليته مقاعد في مبنى الطالبات، وبذلك يكون قسم الإعلام الذي يتبع كليته، الأول الذي سيخرج صحافيات ومذيعات ومخرجات سعوديات، «فنحن قررنا البناء من الأعلى، فبعد أن تتخرج طالبات الدراسات العليا في قسم الإعلام، سنبدأ في استقبال طالبات البكالوريوس الراغبات في دراسة التخصصات الإعلامية كافة.

ولم يقف توظيف الحيزان لإمكانات التقنية عند هذا الحد، ولكن «بدلاً من مكتبة عتيقة لرسائل الكلية، أنشأنا مكتبة رقمية على أقراص (دي في دي) لتسهيل الإفادة من الرسائل الجامعية، وبيعها على الراغبين في الداخل والخارج بأسعار رمزية، وبالأمس فقط تلقينا طلباً من دارس في أميركا لإحدى الرسائل، ووصلت إليه بضغطة زر، وما يعد أهم من ذلك أنه بدءاً من الفصل الحالي بات بوسع طلابنا المنتسبين الحصول على مقررات القسم في مدنهم وقراهم، على موقع الجامعة الإلكتروني وهو ما يعرف علمياً بـ (التعليم الإلكتروني اللاتزامني)، وقريباً سنمكنهم من الاختبار في أي منشأة تابعة للجامعة، حتى لو كانت معهداً علمياً»!

ويذكر العميد أن غربلته لكلية الإعلام، التي يتمنى - تلميحاً لا تصريحاً - أن تعم جميع الكليات «جاءت بعد دراسة مقارنة أجراها بين مقررات الجامعات الأميركية والسعودية لمادة «الإعلام»، توصلَ بعدها إلى أن الجامعات السعودية تدرس تاريخ الإعلام، وليس الإعلام المهني المعاصر».

لكن الذي يقر الحيزان بأنه الفريضة الغائبة في الجامعة التي يعد أحد رموزها التحديثيين، هو «حملة علاقات عامة، تعكس للناس ما بداخل الجامعة ليبصرونه، رأي عين. الجامعة مظلومة ومجني عليها، على رغم تاريخها في تخريج قيادات أسهمت بقوة في التنمية الوطنية، فمعظم المسؤولين اليوم من خريجي هذه الجامعة، كل هذه وغيرها عوامل تؤهل الجامعة لترسيخ مكانة أرفع

لها في ذهنية الجماهير المحلية والعالمية». وأقر بأن مدير الجامعة السالم، «ليس من جنس المديرين المتوجسين من التطوير والتغيير، بل يرحب بالأفكار الجديدة، ويدعم تنفيذها، طالما هي في إطار الثوابت الشرعية، والأعراف المرعية، وتتفق مع هوية الجامعة الإسلامية».

الجامعة في سطور

كان تعليم العلوم الشرعية والعربية في المملكة العربية السعودية قبيل افتتاح المدارس الحكومية والمعاهد العلمية - كما تقول الجامعة في موقعها على الشبكة - «متوافراً في معظم مناطق المملكة عامرة به مساجدها وبعض بيوت علمائها الذين تخرج على أيديهم كثير من القضاة، وكان للشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ - رحمة الله عليه - وإخوانه الدور الفعال في إثراء الحركة العلمية بمدينة الرياض وما جاورها، ومع بداية النهضة العلمية الشاملة في عام ١٣٧٠هـ».

لكن إقبال الشباب على العلوم الشرعية دعا «حكومة الملك عبد العزيز بن عبدالرحمن - رحمه الله - إلى افتتاح معهد الرياض العلمي وأسند الإشراف عليه إلى مفتي المملكة العربية السعودية الشيخ العالم محمد بن إبراهيم رحمه الله، وكان اللبنة الأولى للمعاهد العلمية في مختلف مناطق المملكة، ثم افتتحت كلية الشريعة بالرياض عام ١٣٧٣هـ، وكلية اللغة العربية بالرياض في عام ١٣٧٤هـ، ثم تتابع افتتاح المعاهد العلمية وكانت منضوية تحت مسمى «الرئاسة العامة للكليات والمعاهد العلمية».

وفي ١٣٩٤/٨/٢٣هـ صدر المرسوم الملكي الكريم رقم م/٥٠ المبني على قرار مجلس الوزراء رقم ١١٠٠ وتاريخ ١٣٩٤/٨/١٧هـ بالموافقة على نظام جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، واعتبارها مؤسسة تعليمية وثقافية عالية، وقد شملت المعاهد العليا والكليات والمعاهد العلمية.

ومنذ إنشاء الجامعة وهي في توسع مستمر إذ يوجد بها الآن ١١ كلية منها خمس في الرياض وست خارجها في كل من مناطق القصيم والأحساء والجنوب والمدينة المنورة، إلى جانب معهدين في الرياض أحدهما للقضاء (يعتبر المصدر الأساسي للكادر القضائي في المملكة)، والآخر لتعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها، وخمسة معاهد في الخارج لتعليم العلوم الإسلامية والعربية في كل من رأس الخيمة وجيبوتي وإندونيسيا وأميركا واليابان، و٦١ معهداً علمياً منتشرة في مختلف مدن المملكة.

وكانت الجامعة اختارت لنفسها أهدافاً رئيسة، تحكم عملها.

الأول: أنها مؤسسة علمية وثقافية تعمل على هدي الشريعة الإسلامية.

والثاني: أنها تقوم بتنفيذ السياسة التعليمية بتوفير التعليم الجامعي والدراسات العليا.

والثالث: النهوض بالبحث العلمي والقيام بالتأليف والترجمة والنشر.

والرابع: خدمة المجتمع في نطاق اختصاصها.

الخوف من التيسير!

أنهى فقهاء عرب ومسلمون اعتكافهم على درس جوانب التيسير في الحج، خلال "ندوة الحج الكبرى" ١٤٢٧هـ التي طغت فيها على مدى ثلاثة أيام، رؤى التسامح الفقهي على كل ما سواها.

ولم يغادر المنتدون قاعتهم وفي الفقه الإسلامي، شاردة من التيسير في الحج أو واردة إلا أشبعوها بحثاً، ودافعوا عن إمكان الافادة منها، في عصر بات فيه الازدحام على الركن الإسلامي، معضلة مؤرقة.

ومثلما غلب طابع رفع الحرج في الندوات التي تألق فيها العنصر النسائي إلى جانب الرجالي، خرجت توصيات الندوة بالنفس ذاته، بل حضت على "إعداد موسوعة فقهية تيسيرية للحج تتضمن جميع أحكام التيسير في الحج ومجالاته ومظاهره، وتتولى لجنة علمية متخصصة تتكون من علماء البلاد الإسلامية إصدارها ويوقع عليها لفيف من كبار العلماء، وتوصي بها المجامع الفقهية ودور الإفتاء لجعلها محل وفاق وقبول من قبل جماهير الأمة وعموم حجاج بيت الله الحرام".

وأكدت التوصيات على أن "مبنى الشريعة بعامة هو التيسير في أصولها وأحكامها ومقاصدها، سواء كان ذلك في مجال العقيدة أو العبادات أو المعاملات أو الآداب والأخلاق، و أن قاعدة التخفيف في أحكام الشريعة قاعدة عامة معتبرة في كتاب الله عز وجل بنص الآية الكريمة: ﴿**يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفا**﴾".

غير أن الفقهاء في ندواتهم إلى جانب التوصيات التي أقروها، نبهوا إلى أن "التيسير والتخفيف المشروعين، منضبطان بنصوص الشريعة وأحكامها ومقاصدها، ولا يجوز التوسع فيهما بما يؤدي إلى تحريف أحكام الشريعة وتبديلها وتعطيلها، فالتيسير لا يعني الانحلال من أحكام الدين أو اتباع الهوى والتشهي".

وفي هذه الجزئية ساد ما يشبه السجال بين الداعين إلى التوسيع عبر تتبع الرخص، والمحذرين مما يعرف لدى الفقهاء بالتلفيق. بيد أن عضو هيئة كبار العلماء في السعودية الدكتور عبدالوهاب أبو سليمان اختار موقفاً وسطاً واختار أن الشريعة منها "العزائم والرخص"، والناس منهم القوي والضعيف، وكل يأخذ الذي يناسب حاله.

إلا أن هذا السجال والاختلاف في تطبيقات التيسير لم يؤثر على إجماع المشاركين كلهم على أن "التيسير في الشريعة بعامة، وفي العبادات بخاصة، وفي الحج بوجه أخص، هو الأخذ بالرخصة عند الحاجة إليها، وأداء الواجبات الشرعية بأسهل الطرق

المشروعة، وليس معناه التفريط أو التساهل في أداء التكاليف الشرعية".

واحتاج المشاركون لضبط هذه التوصية إلى أخرى حددوا فيها مصطلح "الرخصة" ذاته، وقرروا أن "الرخصة الشرعية هي التي تقوم على دليل شرعي معتبر، وتصدر من عالم ثقة في دينه وعلمه، وتوصي بناء على ذلك بوضع الإجراءات والتدابير المناسبة لمنع كل من ليس أهلاً للفتوى من الإفتاء بغير علم".

وكما حمل المشاركون على الفتاوى المتشددة التي تهدم الجهود الأخرى التي تبذلها الحكومة في مشاريع الإنشاء والتنظيم، اعتبرت الفتاوى المضللة عنصراً آخر دخيلاً على التيسير الذي ينادون به.

محاولات تطبيقات التيسير دعت الاجتماعي في جامعة الكويت الدكتور القشعان إلى ترجي فقهاء المذاهب الإسلامية أن ينظروا بشفقة إلى المرأة وأن يعفوها من "اشتراط المحرم في الحج إذا وجدت رفقة آمنة".

لكن هذا الرجاء اعتبرته الفقيهة السعودية نوال العيد التي سجلت حضوراً ملفتاً " تشجيعاً للرجل على التنصل من واجباته الاجتماعية"، بل رأت أن "اشتراط المحرم من أبرز جوانب التيسير، إذ من غير المشرِّف لامرأة ذات وزن ومروءة أن تفرض نفسها على الغرباء وتطلب منهم أن يقبلوها رفيقة".

والقشيعان الذي ألقى كلمة الضيوف في الحفل أقر ضمناً بأن حضوره للندوة دعاه إلى تغيير فكرته عن علماء السعودية، قائلا: "الفكرة السائدة عن هذا البلد وعلمائه أنهم متشددون في قضايا فقهية عدة، بينها مسائل في الحج، لكن الذي شاهدناه أيام هذه الندوة كان مختلفاً تماماً".

وفي كل أيام الندوة التي نظمتها وزارة الحج في فندق انتركونتينتال في مكة أخيراً، لم ينفك الحضور من الداخل والخارج، عن التعبير عن بالغ شكرهم للقيادة السعودية على ما وفرته من سبل راحة للحجاج والمعتمرين.

تقارير شبه سياسية

إمارة الويب

الحملات الصليبية في ثوب عصري

حل الطائفية بالطائفية؟

شبح واشنطن يطارد أبرياء في وطنهم

الجلد في المحاكم إلى أين؟

الأفكار الإرهابية لا تتحول بالمواعظ

دراسة: العلمنة والأمركة حلول فاشلة

مؤسسة الحرمين... الإقلاع حتى السقوط

إمارة "الويب"

تحولت شبكة الإنترنت بفضل الإمكانات الهائلة التي تسخرها إلى عنصر حيوي لدعم الخلايا الإرهابية في مناطق مختلفة من العالم، وإذ اعترف أحد أخطر منظري القاعدة أن "الإنترنت يشكل منفذاً لوجستيا داعما وحاضنا للنشاط الإعلامي للقاعدة" باتت ساحة النت فيما يبدو ميدانا لمعركة أخرى قد تكون الأصعب ضد شبكات الإرهاب الدولية بما فيها تنظيم القاعدة.

وثمة تساؤلات مثارة حول قدرة دول العالم على إيجاد حلول تقنية صارمة للحد من انتشار الجريمة على الانترنت، في الوقت الذي لا تزال جهود السلطات السعودية مقصورة في أغلب الأحيان على حجب المواقع ذات المحتوى (غير القانوني)، بينما الأساليب التقنية التي تسمح بتجاوز القيود التي تفرضها الجهات الرقابية تجعل الجهود عاجزة أمام كبح جماح الدعم اللوجستي للإرهابيين على الانترنت، الأمر الذي دفع رئيس مركز أبحاث الجريمة في وزارة الداخلية السعودية (سابقاً) الدكتور عبد الله اليوسف إلى الإقرار بأن "رجال الأمن على مستوى الوطن العربي يواجهون تحديات كثيرة في مكافحة جرائم التقنية، ما يتطلب وسائل غير

تقليدية لمواجهتها والتعامل معها"، وقد أوصى في دراسة نشرتها (أكاديمية نايف العربية) بالعناية بالبرامج التطبيقية الوطنية لحماية أمن المعلومات، وتزويد الأجهزة الاقتصادية والأمنية بالاختصاصيين والكفاءات الفنية اللازمة لذلك "

وحذر من أن الإرهاب "أصبح يعتمد على التخطيط والتنظيم وكثافة التسليح، وضخامة الإمكانات المتاحة لجماعاته، حيث أصبحت تمتلك الأسلحة والمعدات لتنفيذ النشاطات الإرهابية بمعدلات غير مألوفة كمّاً ونوعاً، هذه العناصر تجعل العرب بحاجة ضرورية إلى استخدام المناهج العلمية لمعرفة أبعاد واتجاهات الظاهرة الإرهابية على الإنترنت في المستقبل، ووضع تصورات استراتيجية لمواجهتها من خلال تحديث برامج التدريب والتعليم في الكليات الأمنية في الوطن العربي، لمواجهة موجات العنف والإرهاب التي تكتسح العالم كله".

واعتبر مكافحة الإرهاب على الإنترنت "من المستجدات الأمنية التي تحتاج إلى بحوث أمنية، تنطلق من خصائص واهتمامات ذات علاقة بالسياسات الاجتماعية، ولا تنطلق من اهتمامات أكاديمية وتنتهي بها، كما يجب أن تكون التوصيات الأمنية المقدمة في هذا المضمار واقعية من الناحية السياسية والإدارية والعلمية".

في حين كشف الدكتور عمار بكار رئيس تحرير "العربية. نت" أن التحدي الذي يواجه الخبراء والمتخصصين والسلطات الأمنية على حد سواء هو " كيفية مراقبة ملايين المعلومات التي تبث على

الانترنت كل يوم، وتمييز المحتوى (غير القانوني) دون الإضرار بقوانين ومبادئ حرية المعلومات وحرية التعبير، ودون الإضرار بشركات الإنترنت التي نمت بشكل سريع بسبب المرونة في التعامل مع مستخدمي مواقع الإنترنت، كما تتناول مناقشات المختصين كيفية تمييز هوية الشخص الذي يبث المحتوى اللاقانوني".

مضيفا أنه " على الرغم من تميز شبكة الإنترنت بوصولها السريع لملايين الناس في وقت واحد، وبتكلفة منخفضة، ودون أي حواجز قانونية تقريباً؛ إلا أن هذه الصفات - التي جعلت من الإنترنت ثورة غيرت العالم إلى الأبد - ساعدت شبكات الإرهاب على نشر فكرها المتطرف، وتحفيز من يقتنع بهذه الأفكار على المشاركة في أنشطتها الإرهابية، ونشر أخبار "مشوهة" تسهم في دعم هذا الفكر وترفع من الروح المعنوية لأتباعه. إلا أن الميزة الأهم للإنترنت هي مساعدتها على خلق "المجتمع الافتراضي" الذي يُمكِّن مجموعة قليلة جداً من الناس متوزعة جغرافياً، أن تكوِّن مجتمعاً خاصاً بها يساعدها على الالتحام والتواصل الدائم، الأمر الذي يوهم بعض الناس بأن هذا المجتمع (غير محدد الأبعاد الكمية) هو مجتمع كبير وله وزنه، وهذا كان له دور كبير في تضخيم الصورة الذهنية لقوة وحجم المجموعات الإرهابية".

ويصف الدكتور إياس الهاجري مدير وحدة الإنترنت بمدينة الملك عبد العزيز للعلوم والتقنية - الجهة المسؤولة عن حجب المواقع التي تحمل المحتويات غير القانونية على (سِيرْفَر السعودية) إمكانية

تمييز هوية الشخص الذي يبث المحتوى غير القانوني إلى "صعب ومتوسط فسهل، مشيرا إلى أن صعوبته لا تعني أنه مستحيل".

تدمير المواقع غير القانونية

غير أن الهاجري نفى أن يكون ضمن وسائل السيطرة على المحتويات غير المرغوب فيها؛ تدمير مصادرها، جاعلاً دور المدينة في هذا الصدد محصوراً في تقديم خدمة الإنترنت بالمملكة في الجوانب التشغيلية الفنية، حيث تقوم المدينة بتشغيل (البوابة) التي تربط جميع مقدمي خدمة الإنترنت في المملكة بشبكة الإنترنت العالمية عن طريق نقطتي ارتباط في كل من الرياض وجدة، وذلك بالتنسيق مع شركة الاتصالات السعودية التي توفر للمدينة خطوط الربط الدولية، كما تقوم الوحدة كذلك بتسجيل أسماء النطاقات الخاصة بالمملكة (sa).

أما ما يخص الجوانب الأمنية وما يتعلق بذلك من حجب لنوعيات معينة من المواقع، مثل تلك التي تشكل خطرا أمنيا فكشف أن دور المدينة في ذلك "يتمثل في تنفيذ التعليمات التي تردها من اللجنة الأمنية الدائمة للإنترنت التي تضم عدداً من الجهات الحكومية، تمثل قطاعات أمنية وأخرى غير أمنية. فالمدينة جهة تقنية بحتة، وفحص محتوى تلك المواقع يحتاج إلى خبرة في الأمور الأمنية والتي لا توجد في المدينة بطبيعة تخصصها".

ضمن السياق ذاته أشار الدكتور عبد الله اليوسف رئيس مركز مكافحة الجريمة (سابقاً) إلى "أن اختراق المواقع المشبوهة التي

تمارس التحريض على الإرهاب وقتل الأبرياء أمر وارد، لكنه يحتاج إلى العديد من الفعاليات التي يصعب الجزم بالتمكن منها في كل حالة"، مشيرا إلى أن الاستعانة ب (الهاكرز) في هذا الإطار "أمر وارد أيضاً".

وكانت معلومات تداولتها وسائل الإعلام السعودية عشية مقتل عبد العزيز المقرن - زعيم تنظيم القاعدة في الخليج - تكهنت باستعانة الأجهزة الأمنية السعودية بخبراء ومحترفين في اختراق النت، وكشف خيوط تسلسل التواصل عبره، ما أسهم في كشف مخبأ (المقرن) وخلايا أخرى ذات علاقة بالقاعدة، كانت تنشط على الانترنت، غير أن المصادر الرسمية اكتفت لدى التعليق على ذلك " بعدم توانيها في استخدام أي وسيلة تسهم في التوصل إلى المجرمين".

نسبة المواقع السياسية المشبوهة

وتشير دراسة أجراها محمد المنشاوي، وهو ضابط برتبة عقيد في وزارة الداخلية السعودية حول جرائم الإنترنت، إلى أن المواقع السياسية المشبوهة تمثل فقط ٤,٢٪ من اهتمام رواد الإنترنت في المملكة، إلا أن ذلك لا يقلل من تأثيرها فهي -كما يرى-"خطرة باعتبارها تبتكر وسائل إجرامية لبث أفكارها ومبادئها وتقوم بتلفيق الأخبار والمعلومات ولو زوراً وبهتاناً، ومن ثم نسج الأخبار الملفقة حولها، وغالباً ما يعمد أصحابها إلى إنشاء قاعدة بيانات بعناوين أشخاص، يحصلون عليها من الشركات التي تبيع

قواعد البيانات، ثم يضيفون تلك العناوين قسراً إلى قائمتهم البريدية، ويبدؤون في إغراق تلك العناوين بمنشوراتهم، وهم عادة يلجؤون إلى هذه الطريقة لإيصال أفكارهم الضالة إلى أكثر عدد ممكن".

ويبين العقيد المنشاوي أن "دراسة موثقة أوضحت أن نسبة ٧,٥٪ من المتعاملين مع الإنترنت تعرضوا للاشتراك القهري في المواقع السياسية المعادية.

وتعد المواقع التي تميل نحو الإرهاب في السعودية محدودة، إلا أنها أحيانا تفلح في جذب أعداد هائلة من الزوار، بفضل إثارتها لفضول القراء و المنتديات المحايدة، ما يجعل هذه الأخيرة تتناقل بعض أخبارها ومنشوراتها، يساعدها في ذلك إحرازها السبق في نشر بيانات الإرهابيين من تنظيم القاعدة، وتنظيراتهم التي تلقى اهتمام وسائل الإعلام المحلية والعالمية، فضلاً عن شريحة كبيرة من السعوديين ممن يدفعهم الفضول إلى البحث عن المحظور، خصوصا بعد تصاعد المواجهات المسلحة بين الإرهابيين والسلطات الأمنية في البلاد.

وفي ظل عدم إمكانية السيطرة الكاملة على كل المواقع المشبوهة سياسياً، يرى العقيد محمد المنشاوي أن "الخيار الوحيد أمام السلطات الأمنية السعودية هو الاستمرار في الحجب والتوعية ضد الجرائم الإرهابية التي ترتكب بواسطة الإنترنت، بالإضافة إلى إنزال العقوبة على من يثبت تورطه في جرائم من هذا النوع".

وثمة من المراقبين من يرى أن "إشكالية الأمن المعلوماتي على الإنترنت تعد معضلة عالمية، إلا أنها في العالم العربي تتسم بقدر أكبر من الخطورة إذ لا تزال القوانين حيالها غير ناضجة".

إلا أن الدكتور إياس الهاجري يرى أنه "مع زيادة التجاوزات الأمنية على الشبكة خلال السنوات الأخيرة، سواء ما يتعلق بالشبكات الإرهابية أو جرائم الإنترنت المتنوعة، مثل الاختراقات ونشر الفيروسات والنصب والاحتيال وغيرها، فقد تنبهت كثير من دول العالم إلى هذه المشكلات وبدأت في وضع آليات للمراقبة وتشريعات لتجريم مرتكبي تلك الأعمال ومعاقبتهم. أما على المستوى السعودي فهناك بعض الأعمال في هذا المجال لكن تحتاج إلى مزيد من التفعيل، ولعل ما أشير إليه مؤخراً من توصية لمجلس الشورى بوضع نظام شامل لأمن المعلومات هو خطوة في هذا المجال".

بريطانيا الحاضن الأكبر للمواقع الإرهابية

وبالعودة إلى الإنترنت وما يشكله من أهمية لممارسي الإرهاب والمتعاطفين معه يرى الباحث في هذا الشأن عمار بكار، أن "أبرز المواقع التي تنشر بيانات الشبكات الإرهابية هي المواقع التي تديرها مؤسسات وأفراد أصوليون في أوروبا، وخاصة بريطانيا، وإن كانت هذه المواقع تسعى دائما لإبعاد نفسها عن هذه البيانات، وادعاء أنها تبثها لأهداف إعلامية بحتة، وذلك لتفادي العقوبات التي ينص عليها قانون الإرهاب الجديد في بريطانيا،

والذي يجير سحب الجنسية من المطالبين بتهم إرهابية من قبل دول أخرى".

وكشف أن "ما هو أبعد من تبشير هذه المواقع بأهداف منشئيها، الجهات التي توفر لها الحماية باستضافتها، إذ يتساءل الكثير من الأشخاص عن الكيفية التي تحصل بها المواقع الإرهابية على مساحات لها على شبكة الإنترنت، ولماذا يتعذر ملاحقتها وإغلاقها، ولماذا تقدم لها الشركات الدعم، بالرغم من أن الكثير من هذه الشركات غربية، ويفترض فيها محاربة الجهات التي تتبنى الحرب على الأمريكيين والأوروبيين حول العالم".

ويفسر بكار وجود هذه المواقع، "بكون الكثير من الشركات تستضيفها دون أن تعلم بهوية المحتوى الموجود عليها، وأبرز الأمثلة موقع "البتار" الذي تستضيفه جهة داخل المملكة العربية السعودية، فضلاً عن عدد من المواقع المعروفة، حيث تقوم الجهة بدور الوسيط بين مواقع الإنترنت (وسرفرات) الاستضافة في أميركا، المشرف على الجهة المستضيفة لم يكن معنيا بمحتوى الموقع المحظور (البتار) أساساً" وهو موقع يوسف العييري زعيم تنظيم القاعدة الذي قتل في مواجهة أمنية مع قوات الأمن السعودية في يونيو ٢٠٠٣.

الحملات الصليبية في ثوب عصري

سلكت الكاتبة "كارين أرمسترونغ" نمطا جديدا في قراءة التاريخ الأسود بعين الحاضر المتوتر والمأزوم، إذ حاولت في كتابها الجديد (الحرب المقدسة.. الحملات الصليبية وأثرها على العالم اليوم) أن تكشف مدى ارتباط الحروب الصليبية بالنزاع القائم بين اليهود والعرب في الشرق الأوسط، ليأتي الكتاب متزامنا مع الحملة الأمريكية ضد ما تسميه الإرهاب، في وقت ينظر عدد من العرب والمسلمين إلى تلك الحملة على أنها استئناف للحملات الصليبية التي أضحت تاريخا تستوحى منه العظات والعبر!

وانطلقت الكاتبة من القرن الحادي عشر الميلادي إذ تشهد أوروبا ـ كما تقول ـ "محاولات للتخلص من الشعور بالدونية تجاه المسلمين الأشد منهم بأسا والأرقى ثقافة، وبدؤوا يحاولون بناء ذات جديدة ويشعرون بثقة جديدة. وهكذا كانت الحملات الصليبية جزءا أساسيا من هذه العملية، وعبرت تماما عن الروح الغربية الجديدة".

فرأت بذلك أن "المسلمين قد وفروا على الفرنجة مؤونة البحث عن العدو بالكامل، وإن كان من الواضح أن الفرنجة لم تكن لهم

حتى ذلك الحين أية مآخذ على المسلمين، ولم يكونوا يعرفون شيئا عن الديانة الإسلامية، سوى أن المسلمين غير مسيحيين وأنهم مقاتلون أشداء، ومن شأن التغلب عليهم أن يعلي كثيرا من شأن الفرنجة " وعملية توفير العدو في نظرها " إجراء بالغ الأهمية من أجل تطوير هوية جديدة ".

وتمضي المؤلفة في محاولة حثيثة لتلمس خيوط المقاربة بين الماضي الصليبي والإسلامي؛ ليبدو واضحاً "كيف وصلت الفكرة الصليبية إلى أن ترتبط ارتباطا واضحا ومباشرا بالنزاع الحالي في الشرق الأوسط، ففي بداية رحلتهم إلى ذات جديدة لهم حيث ذبح الصليبيون اليهود، وفي نهاية حملتهم المرعبة ذبحوا المسلمين في القدس بوحشية تقشعر لها الأبدان، وكان الحقد على اليهود والمسلمين قد انغرس عميقا في الهوية الغربية، ولولا اللاسامية الغربية لما قامت دولة يهودية في الشرق الأوسط".

وفي أثناء الفقرات الماضية والتالية تتبنى (أرمسترونغ) رؤية خطيرة، تلمح فيها إلى أن الصليبيين كانوا وراء التمكين للصهيونية الحديثة التي اغتصبت الأرض العربية، وهو أمر لا أستطيع الجزم بأنه كان ما تعنيه الكاتبة تماماً، غير أنه سيكون أوضح من أن يخفى بالنسبة للقارئ العربي الذي يبصر اليوم تحالفا دنيئا بين الصهيونية واليمينية المسيحية، وهو ما ينتقده المسيحيون واليهود المعتدلون على حد سواء.. وإن كانت مسوغات الفريقين مختلفة.

فقررت أن اليهود لما راحوا "يلتمسون لأنفسهم حلا قوميا كانت الفلسفة الأساسية للحل القومي هي إعادة الاتصال المادي بأرض آبائهم، فنشأت الحركة الصهيونية. وكانت الهجرة الأولى إلى فلسطين".

لكن العرب والفلسطينيين الذين لم يخطروا بوعد بلفور، "كثير منهم حيوا بريطانيا، متأملين أن أياماً أفضل تنتظرهم في المستقبل" ماحمل الشاعر على الريماوي يومئذ على "وصف العهد التركي الطويل بالمظلم في قصيدة نظمها عام ١٩١٨م أشار فيها إلى أن الفلسطينيين يعلقون آمالا على البريطانيين" وقصائد أخرى من ضمنها قصيدة لمعروف الرصافي ذكرت المؤلفة مقطعا منها.

وتكمل "لكن جرت الأحداث بعد الاحتلال البريطاني لفلسطين كما هو معروف، فقد بدأ اليهود يتدفقون إلى فلسطين حتى أعلنوا قيام دولتهم عام ١٩٤٨م، وهجر مئات الآلاف من الفلسطينيين من أوطانهم، وهدمت قراهم ومحيت من الوجود واستبدلت بها قرى بأسماء عبرية، وتحول النزاع العلماني على الأرض مرة أخرى إلى نزاع ديني وحرب مقدسة "

المؤلفة رغم أنها لم تحاول إضفاء الشرعية على الحملات الصليبية إلا أنها اجتهدت في التخفيف من دوافعها، إذ رأت بشكل إجمالي أنها قد "امتزجت فيها الدوافع الشخصية والمغامرة والمثل المسيحية"، فيما حمّلت المسلمين في عهد صلاح الدين الأيوبي وزر

تحويل المواجهة إلى صليبية.. وتقول: "كان المؤرخون المسلمون الذين كتبوا عن الحروب الصليبية، يرونها حملات عسكرية توسعية اقتصادية ولم يربطوها أبدا بالدين المسيحي (!!) غير أن عماد الدين زنكي بدأ حملة مضادة لمواجهة الصليبيين، واستعيدت من جديد قيم الجهاد وأفكاره لتجميع المسلمين في مواجهة الصليبيين، وتحولت الحرب لدى المسلمين من علمانية للتحرير والدفاع إلى حرب ممزوجة بالكرامات الدينية، وتصاعدت الوتيرة الدينية للحروب بمجيء محمود نور الدين زنكي بعد مقتل أبيه عماد، فقد كان محمود بخلاف أبيه متدينا".

وإذا كان العرب قد احتفلوا بإعادة السيادة إلى العراق وإن شكليا، بعد احتلاله بدافع تبين فيما تلا أنها مجرد "كذبة"، فإنه من الواضح أيضا أن الحرب ضد العراق وبلدان أخرى عربية وإسلامية لم تكن حربا دينية، بقدر ما هي "اقتصادية" واستراتيجية كما هو الحال بالنسبة للحملات الصليبية الماضية.

والمحزن أنه في الوقت الذي تشهد فيه المؤلفة - وهي شاهدة محايدة - أن صلاح الدين بعد أن انتصر على الصليبيين الذين اغتصبوا أرضه "جرى على يديه بعد ذلك عمليات واسعة لإطلاق سراح بقايا الصليبيين من الأسرى وجمع شملهم بعائلاتهم، ونقلهم إلى بلادهم أو بقايا مدنهم على البحر المتوسط، مثل عكا وصور" وأنه "لم يُقْتَلْ مسيحي واحد من المدنيين بعد معركة حطين، ومازال

صلاح الدين موضوع تقدير العالم المسيحي، ونسجت حوله الأساطير الضخمة إلى جعله أحد القديسين المسيحيين".

في الوقت نفسه يمارس الجهاديون الكاذبون - الذين يفترض أن يكون صلاح الدين قدوتهم - اليوم عمليات تطهير عرقية بشعة في أنحاء شتى من العالم الإسلامي، بدافع "إخراج المشركين من جزيرة العرب "حينا، وإعلاء كلمة الله حينا آخر، وهم في واقع الأمر لا يعلون إلا كلمة "الشيطان". والحديث ليس إلا عن "الزرقاوي والظواهري" وشيعتهما.

فحتى لا تقام حروب صليبية أخرى، وتعود العلاقات الإسلامية المسيحية إلى ما كانت عليه من الازدهار في العصور الوسطى؛ ليكن المعتدلون من المسلمين والمسيحيين صفا واحدا ضد متطرفيهم، ممن يستمدون شرعية إهلاك الحرث والنسل من (الديانتين)، في الوقت الذي تؤكد نصوص القرآن والإنجيل "أن الله لا يحب الفساد".

حل الطائفية بـ "الطائفية"

يروى أن الحارث بن عباد اعتزل في حرب "البسوس" القتال الذي دار بين قومه(بني بكر بن وائل) وأبناء عمومته بني تغلب، رغم بسالته القتالية المشهود بها في مواقف سبقت اندلاع الحرب، ما يؤكد أن دافع اعتزاله إنما هو كراهيته لإشعال نار الفتنة المستعرة أصلاً، لكن صبره نفد عندما حاول فعل شيء يطفئ الفتنة، فأرسل ابن أخيه لأهل الدم ليقتصوا منه، ويكون خاتمة الاقتتال.

إلا أن المهلهل أخا المقتول (كليبا) بعد أن نفذ الحد، فاخر بقولته الشهيرة: "بؤ بشسع كليب"، ما استفز المصلح بن عباد وأرغمه على المشاركة في الفتنة، بعد أن أنشد: "قربا مربط النعامة مني/ إن قتل الحر بالشسع غال"، وغدت قصيدته مثلاً لكل من انتهى حلمه، وأصبح الجيل بعد الجيل يرويها. وهكذا كان اتخاذ الديكتاتور "أضحية العيد"، فعلاً يختصر كل ما جرى في العراق منذ الاحتلال، وَسَجَّلَ مؤشراً على كثير مما يتمنى المخلصون أن لا يصير مستقبلاً.

ووجه المقارنة أن قتل (كليب) كان الفتنة الكبرى مثل الاحتلال، والتضحية برئيس آدمي كقتل الحر في مقابل شسع نعل،

بلغت المنتهى في الاستفزاز.وربما كان أسوأ ما في مقتل الرئيس، هذا الاستدعاء لكل جراح التاريخ بين الطائفة السنية والشيعية، حتى أخرج العلماني من علمانيته والليبرالي عن ليبراليته، والإصلاحي عن فكره التقريبي، وأعاد إلى أذهان التلاميذ فضلاً عن الشيوخ أحداث الماضي كما لو أنها وقعت يوم الأضحى الماضي.

وتبعاً لذلك فإن "الحياة" تطرح على المختلفين سؤالاً حول ما إذا كان: إطفاء نار الطائفية هو في عودة القومية أو العلمانية أو الترسيخ لليبرالية، أم أن إخماد نيرانها يكون بتأجيج طائفية مقابلة على الصعيدين الفكري والسياسي، على رأي المثل العربي: وداوها بالتي كانت هي الداء؟!

في المحور الأول، الذي يتساءل عن العلاقة بين الطائفية وظهور العلماء من الجانبين في المقدمة، يجزم العضو الشيعي في كتلة إياد علاوي في البرلمان العراقي إياد جمال الدين، بأن "رجال الدين غير المعتدلين هم الذين يشعلون غالباً وقود الفتنة"، ولا حظ أن ذلك يتم حيناً بواسطة الأتباع، وطوراً بواسطة الزعيم الديني نفسه.

وتتقاطع مع هذا الرأي الكاتبة السعودية جهير المساعد، التي ترى أن "علماء الدين تاريخياً يترددون بين مطفئين للطائفية ومشعلين لها، ولذلك فإن معظم الحروب الطائفية أشعلتها في الأساس فتاوى رجال الدين، كما أن الفتن التي تمت السيطرة عليها ساعدت طوائف من العلماء في إطفائها".

ولذلك فإنها تعتقد أن تحييد علماء الطوائف المتناحرة عن العراك السياسي "ربما يشكل حلاً مرحلياً، لتجنب التصعيد في مسائل قابلة للاشتعال"، وهي في الوقت نفسه لا تؤمن بإطفاء الروح الطائفية عبر "الاحتواء" الذي تصفه بالاستقواء، ولا الحوار وإنما "بصياغة جديدة تبرمج الطفل من الصغر على ثقافة وطنية، تربيه على الاعتراف بكل الكيانات التي تشاركه في الوطن، وأنها ليست فئات متصارعة ضد بعضها".

ومع إقرارها صراحة بأن الانطلاق من الخلفية الدينية يأتي في صالح إشعال أكبر قدر من الطائفية، إلا أنها أقرت بأن "كل الأطراف الأخرى الليبرالية والعلمانية وسواها، وقعت في فخ الطائفية مثل الإسلامية، ولكنها تتفاوت في ترجمة قناعاتها". وجزمت بأن كل الشعارات تتبخر أمام "اشتعال الروح الطائفية، التي لا تستثني أحداً".

الحل لدى المتنورين

ويرد عضو مجلس الشورى السعودي الدكتور حاتم الشريف على القول بأن إخماد الطائفية مرهون بتحييد رجال الدين، بالقول: "فكرة إبعاد رجال الدين مستحيلة التطبيق، بسبب تمسك اتصال الشعوب الإسلامية الروحي بالتعاليم الإسلامية والمعاني الإيمانية التي يتعلمونها أو يتلقونها من رجال الدين، وتمسك الناس بهذه الشريحة واضح في نتائج الانتخابات التي سحق فيها

الإسلاميون القوميين والشيوعيين والعلمانيين وغيرهم في كل أنحاء العالم العربي والإسلامي".

ولكن الحل في نظر الشريف الذي يعد أحد أبرز علماء السنة في السعودية هو " في الإنصات إلى المرجعيات المتنورة التي تدير الأمور في هذه المرحلة، فليس علاج الطائفية بإذابة الفوارق الحقيقية بين الطوائف كما يعتقد بعض الناس، وإنما بخطاب منصف يدعو إلى التعايش بين المختلفين، فالإسلام الذي استوعب أهل الذمة وهم اليهود والنصاري الذين يدينون بغير الإسلام، لن تقتصر تعاليمه عن تحقيق التعايش بين الإخوة في الدين الواحد، وإن كان بينهم اختلاف شديد في بعض المسائل، والملاحظ أن الخطاب غير المنصف يصدر من الطائفتين على حد سواء".

وفي المحور الثاني الذي يناقش ما إذا كان يجدي مع الطائفية، إشعال نظيرتها المضادة، لكنه يرفض ذلك، لكونه على يقين بأن "إشعال نار الفتنة الطائفيّة ليس في صالح العالم الإسلامي كله، بل في صالح أعدائه من الدول ذات الأطماع والأحقاد فيه؛ لأن الفتنة الطائفيّة تزيد من ضعف المسلمين، (فوق ضعفهم) في القدرة على مواجهة عدوّهم المشترك، إلى حدّ اللجوء إليه لكي ينصرهم ضد بعضهم، فيؤدّي ذلك إلى بَسْط العدو نفوذه علينا جميعاً، لنصبح وقد تسلّط علينا هذا العدوّ المشترك، وخسرنا جميعًا كل ما كنّا ندافع عنه"!

الطائفية المضادة... تنقذ الجميع!

لكن الكاتب السعودي حمد الماجد يقف على النقيض تماماً من الشريف، إذ يرى أن حضور النفس الطائفي المضاد "أفضل حل آني لردع الطائفة الأخرى عن ممارساتها الخاطئة". وأكد أنه لم يعد مقبولاً " تحت وطأة التهمة بالطائفية، السكوت عما يجري لأهل السنة في العراق لأن مثل هذه الصراحة في التحذير تجعل الأطراف الشيعية الرسمية أو الشعبية أو الميليشياتية التي انزلقت في أتون التطهير الطائفي ترتدع عن جرائمها وتحسب لردود السنة بقياداتها السياسية العالمية والعلمية والفكرية ألف حساب، وبلغة أكثر صراحة فإن حل معضلة السنة في العراق سيستفيد منه عموم الشيعة، وكل الطوائف في العراق بل ويجنب دول المنطقة الانزلاق في أتون فتن طائفية داخلية وخارجية "!

وبَرّرَ دعوته تلك إلى "كون سحب دخان فتنة العراق، بدأت روائحها القذرة تخنق المجتمعات العربية حولها، والكل الآن يضع يديه على قلبه من حريق لا سمح الله لا يبقي ولا يذر، والمشكل أيضا أن الناس قادة وعلماء ومفكرين، تهمس بالحلول العملية الصريحة في المجالس والمنتديات الخاصة، وتتكلم بكل تلقائية، لكن لا أحد يجرؤ أن يتحدث بكل شفافية وصراحة، لأن سيف التهمة بالطائفية مسلط للإجهاز على كل صوت صادق، يريد أن ينقذ الجميع وكل الطوائف والاتجاهات من هاوية مهلكة للجميع".

شبح واشنطن يطارد أبرياء في وطنهم

في الوقت الذي يحيي فيه العالم الذكرى الخامسة لأحداث أيلول ٢٠٠١ لا يزال العشرات من السعوديين يصّلون معاناة حصار يرونه جائراً من جانب واشنطن، التي غدا شبحها يطاردهم حتى في أوطانهم، بسبب تصنيفها إياهم في قوائم الداعمين للإرهاب ومحاولاتها تعميم أسمائهم على قوائم الإرهاب لدى الأمم المتحدة أيضاً.

وتشهد المحاكم الأميركية منذ أحداث أيلول ثلاثة أنواع من القضايا، يمثل السعوديون ضحاياها: الأولى، دعوى أهالي الضحايا المشكلة من ١٤ قضية، ضمنها المحامون كل المؤسسات الخيرية السعودية العاملة في الخارج، و نحو عشرين أميراً ووزيراً زعموا علاقة لهم بتنظيم القاعدة وفتيانها. والثانية: قضايا متفرقة لستة سعوديين، وضعت أسماؤهم في فترات متعاقبة في قوائم المصنفين في دعم الإرهاب، وبعضهم تمكن الأميركيون من تعميمه على قوائم الأمم المتحدة.

ويشكل النوع الثالث من القضايا الأكثر حضورا بحلول الذكرى الخامسة، وهي قضايا الطلاب السعوديين في الولايات المتحدة،

التي يصر أولياء أمورهم على أن للاتهامات ضدهم، أبعاداً تمييزية، كما وصفت الحكومة على لسان وزير خارجيتها الأمير سعود الفيصل أخيراً الحكم الصادر ضد أحد أولئك الطلاب (حميدان التركي) بـ "الجائر".

وفي النوع الأول، حشد أهالي الضحايا أسماء مؤسسات وشركات وأمراء وشخصيات سعودية، زعموا أن لها علاقة بأحداث ١١ أيلول سبتمبر، وصنفوها في ١٤ قضية، "تحفل بالكثير من المبالغات والتلفيقات، بدليل أن معظم الأسماء الواردة فيها مكررة، كما أنها لا تقدم غير افتراضات" كما يقول أحد محامي الدفاع عن المؤسسات الخيرية التي تعد الأكثر تضرراً من هذا النوع، بسبب اعتمادها على سخاء المتبرعين الذين أحجم كثير منهم، خوفاً من المساءلة.

ويشير المحامي إلى أن قضايا أهالي الضحايا "تحتاج إلى نفس طويل من المتهمين، نظراً إلى شراسة المحامين الذين تمنيهم أنفسهم بالحصول على حفنة من الملايين، ويظنون أن بوسعهم ابتزاز الأبرياء، مستغلين بذلك موقف الولايات المتحدة من النشاط الإسلامي بعد كارثة ١١ أيلول الإرهابية".

ويرى رئيس الندوة العالمية للشباب الإسلامي الدكتور صالح الوهيبي الذي تُعد منظمته أحد أكبر المؤسسات الإسلامية السعودية المتضررة من دعوى أهالي الضحايا، أن استهداف العمل الخيري بعد أحداث ١١ أيلول (سبتمبر) دوافعه تعود إلى ثلاثة

عناصر، "أولها: العنصر الصهيوني اليهودي، وهذا هو أقوى العناصر، وهو الذي استغل الظروف الآن ضد المؤسسات الإسلامية وضد البلاد الإسلامية بما في ذلك الحرب في أفغانستان والحرب في العراق.

والثاني: هو ما يسمى بالنصارى الجدد؛ فهؤلاء هم البرتوستانت الجدد الذين يؤمنون أن قيام دولة إسرائيل ممهدة، أي اجتماع اليهود في فلسطين يمهد لمجيء المسيح المخلِّص، ومن ثم فإنهم يسعون جاهدين لجمع اليهود في فلسطين، هؤلاء يدعمون التوجه ويدعمون دولة إسرائيل لتحقيق النبوءة تعجيلاً لقدوم المسيح، ومن هؤلاء كما نسمع ونقرأ من هم في البيت الأبيض من أمثال الرئيس بوش نفسه ورامسفيلد وديك تشيني وكوندوليزا رايس وغيرهم يؤمنون بهذه العقيدة النصرانية؛ ومن ثم فإن هؤلاء بعضهم لا ينظر فقط إلى مصلحة أمريكا وإنما يشتغل عن عقيدة؛ فهذان عنصران كبيران".

وأضاف أن العنصر السياسي هو الأخير "إذ يرى النفعيون أن أميركا ينبغي لها أن تقضي على أي شوكة للمسلمين في أي منطقة، لتبقى مهيمنة على العالم، ولتستفيد من المصادر النفطية والثروات الموجودة في العالم الإسلامي؛ فإن موطن الثروات اليوم هو بلاد المسلمين. لو نظرنا للبترول لوجدنا أنه سواء كان في آسيا في بحر قزوين بلاد إسلامية في الخليج بلاد إسلامية في أفريقيا وتشاد ونيجيريا بلاد إسلامية، ومن ثم فإنهم يرون أن تقضى على شوكة

المسلمين ليبقوا في الدرجة الثالثة أو الرابعة في آخر السلم وألا تقوم لهم قوة تهدد قوتهم، وهؤلاء جميعًا يعملون معًا الآن في مسألة منسقة جدًا، ويعملون ضد الجميع، ولكن لا يعني ذلك أنه لايوجد عقلاء في أمريكا والشعب الأمريكي، هنالك أمريكيون أحرار، هناك من الشعب الأمريكي من يبغض هذه المجموعة بغضًا شديدًا جدًا؛ لكن هناك إرعاب للأمريكان بطريقة كبيرة جدًا إعلاميًا واقتصاديًا وما إلى ذلك، حيث إن هذه الأصوات خافتة لكن سيأتي يوم من الأيام سنسمعها وسيعلو -بإذن- الله صوتها".

المصنفون ضمن القوائم

وإذا ما تجاوزنا إلى المجموعة المصنفة ضمن قوائم أميركا للداعمين للإرهاب فإن هؤلاء يمثلون "ستة سعوديين" يفضلون الإبقاء على أسمائهم غير معلنة، "لأسباب نفسية لا أكثر ولا أقل" كما يقول أحدهم، إذ كان ورود اسم أي شخص في قائمة من هذا النوع كافياً لتردد اسمه في كل مكان.

وينقسم هؤلاء إلى فريقين، فريق تم تصنيفه لدى الأمم المتحدة بطلب أميركي، وآخر لم يصنف بعد، وكلا الفريقين تجمد حساباته الشخصية ويمنع من السفر من جانب الحكومة السعودية، التي تقوم بذلك "حرصاً على مواطنيها"، كما يوضح أحد المصنفين في القائمتين: سليمان البطحي، الذي قال: "الحكومة وقفت معنا بصفتنا مواطنين، ونتفهم موقفها في الإجراءات التي تتخذها، وموقفها إيجابي تجاهنا، لكننا بعد مضي هذه الفترة الطويلة نرغب

إلى وزارة الخارجية في بلدنا أن تطالب الحكومة الأمير كية بتقديم أدلة على تصنيفها إيانا، فإن لم تفعل تطالب الأمم المتحدة رفع تصنيفنا عن طريقها".

وحول الأضرار التي يُسببها التصنيف الأميركي أكد البطحي أن "مصالح شخصية كثيرة للمصنفين تعطلت وتضررت، ولذلك أنا شخصياً سأطالب بحقوقي بما فيها النفسية والاجتماعية، فهنالك على سبيل المثال أشخاص أصبحوا يشكون مع ثقتهم بأننا براء لمجرد أن تم تصنيفنا وتناقلت وسائل الإعلام الخبر".

وأما الخطوات التي قام بها حتى الآن فهي -كما يقول- "رفع القضية على الرئيس الأميركي شخصياً لقيامه بالتجسس بيني وبين المحامين لما كنت مديراً لفرع مؤسسة الحرمين في أميركا، على الرغم من أن القانون الأميركي يضمن لأي محام السرية، والآن لدي مجموعة من الأفكار للتحرك في أروقة الأمم المتحدة، لأنني من خلال المحامي لم أجد دليلا واحداً، ولم تستطع كل المحاكم التي مرت بها القضية أن تثبت شيئا، وأنا واثق من نفسي، فلم يسبق لي أن سافرت إلى أي منطقة كأفغانستان أو الشيشان، وعملي كان يقتصر على تعليم الناس، ودعوتهم إلى الإسلام".

ونبه البطحي إلى أنه لا يلوم الولايات المتحدة على تصنيفها إياه خطأ، " ولكن ألومها على عدم إيجاد خطوات واضحة لرفع أسماء المصنفين الأبرياء من القوائم، فهي لم توجد آلية يستطيع

المصنف الواثق من براءته أن يتبعها لإثبات ذلك، وهذا ما دفعنا للجوء إلى المحاكم".

ويعد الدكتور عبد الحميد بن سليمان المعجل آخر السعوديين "السبعة" انضماماً إلى القائمة الأميركية، إذ جاء إعلان وزارة الخزانة الأميركية ضمها إياه في ٣ من آب (أغسطس) الماضي، في بيان زعمت فيه أن فرعي هيئة الإغاثة الإسلامية العالمية في كل من الفلبين واندونيسيا يجمعان الاموال لشبكة القاعدة وجماعات إرهابية اخرى، وأن واحدا من كبار المسؤولين في الهيئة عبدالحميد سليمان المعجل ممن يجمعون أموالاً للقاعدة!

وعلمت "الحياة" أن المعجل قام على إثر ذلك برفع برقيات إلى الملك وولي العهد ووزارة الداخلية في بلاده، موضحاً فيها، كذب الإدعاءات التي تضمنها بيان وزارة الخزانة الأميركية، لكنه فضل في اتصال هاتفي مع "الحياة" عدم الخوض في تفاصيل البرقية، ولا في الخطوات التي ينوي اتخاذها، معللاً بأن "المحامي طلب مني الكف عن التصريحات الإعلامية، فالمرحلة القادمة قانونية بحتة"، في إشارة إلى أنه سيتابع الإجراء نفسه الذي اتخذه زملاؤه الآخرون، بتوكيل محام في أميركا يدافع عن براءتهم.

قضية سعودي... سابقة تُدَرَّس في جامعة أميركية

وفي جانب الدعاوى المرفوعة ضد الطلبة السعوديين في أميركا، اشتهرت من بينها قضيتان بين أوساط السعوديين، إلى حد

أنهما أصبحتا من قضايا الرأي العام التي، يهتم بها الجميع من الملك إلى من دونه، وهما: قضية سامي الحصين، وحميدان التركي.

وفي اتصال هاتفي مع الحصين، الذي قضت محكمة أميركية بتبرئته مطلع ديسمبر كانون الأول ٢٠٠٤ وعاد إلى بلاده عقب ذلك بفترة قصيرة، أبلغ "الحياة" أنه لا يعرف "قضية واحدة وجهت ضد طالب سعودي وكسبتها الإدارة الأميركية، ولذلك تشكل قضية حميدان التركي سابقة في القضاء الأميركي، وهي كما يقر عدد من القانونيين ملفقة، بدليل أن المعتدى عليها (الخادمة) ليست هي التي قامت برفع الشكوى، ولكن الإدارة هي التي ضغطت عليها وقامت بذلك نيابة عنها" مضيفاً أنه لا يريد الحديث عن "تحيز الشعب الأميركي ضد السعوديين أو العرب، ولكن أجزم بأن الإدارة الأميركية قامت بذلك في قضية التركي وقضيتي التي انتهت بالبراءة، إذاً لا شك أن قضية حميدان التركي مُسَيَّسَةٌ، ومثلها قضيتي".

وأضاف الحصين أن قضيته في أميركا "حتى بعد مضي أكثر من عام على طي صفحتها قانونياً لا يزال صداها يتردد في وسائل الإعلام الأميركية، بل إن طالباً اتصل بي قبل أيام وقال إن قضيتي تدرس لهم في الجامعة كسابقة غير مشرفة في تاريخ القضاء الأميركي، كما هاتفني صحافي أمريكي يبدي لي رغبته في تحرير كتاب عن قضيتي، وجهة أخرى طرحت تناولها على شكل عمل تلفزيوني، وكل ذلك لشدة غرابتها".

وكان وزير الخارجية السعودي الأمير سعود الفيصل عَدَّ الحكم الصادر من محكمة أميركية ضد مواطنه حميدان التركي والذي يتراوح بين ٢٨ سنة إلى السجن مدى الحياة "حكماً جائراً"، وقالت وكالة الأنباء الرسمية (واس) إن "جهات عليا في البلاد تدخلت لدى السلطات الأميركية على أعلى المستويات، لحل قضية الطالب السعودي حميدان التركي".

الجلد في المحاكم... إلى أين؟

لا اعتراض على حكم الله "قتلا، صلبا،رجماً قطعاً، جلداً" لا فرق. وإن أضحى الدخلاء عليه مثل نجوم السماء،وبات المؤمنون به أكثر أو أقل. ليس مهما على الإطلاق! المهم الآن: إلى أي مدى تكتسب الآراء الفردية قدسية واقعية وإن نظرنا بأنها إنتاج بشري، تسلُّل الباطل إليها ذات اليمين أو الشمال وارد ومحتمل؟ وماذا يضير مراجعة الوسائل طالما الاتفاق جاريا على الغايات، و على الجزم بأن وسائل تحقيقها لم تأت كلها تنزيلا "من حكيم حميد".؟

إلى ذلك طغت مادة "جلد" في الأمام والمؤخرة مدى أسابيع على المجالس والمنتديات السعودية، وغدت لحناً على شفاهٍ، وبلغماً قذراً يتردد في حلوق، لا تكاد تسيغها، وكادت اللفظة (الجلد) تنافس "العلوج" على لسان طيب الذكر (الصحاف)، محليا وإلكترونيا.

لكنَّ أحدا لم يشأ الخوض في مناقشة المحظور والمباح من المصطلح، الذي اكتسب إضافة إلى ألوان أخرى من التعذيب شهرة إسلامية وعربية إن حقا أو جوراً. والنقاش يدور حول مبدأ "التعزير بالجلد" في عصر باتت وسائل الردع والتعذيب فيه متعددة. وإن

غلبت الروم فما مبررات "التوسع فيه" حتى أصبح العقوبة الأسرع إلى البديهة.

ومع أن القاضي السابق والمحامي الحالي عبد العزيز القاسم أقر بأن التعديلات التي حدثت أخيرا في نظام القضاء السعودي مثلت "واحدة من النقلات الكبرى في مفاصل القضاء السعودي" إلا انه أشار إلى ضرورة تحسين مخرجات التعليم الجامعي وتكثيف التدريب القضائي الذي يذهب إلى بساطة القدر الذي يتلقاه القضاة منه في الوقت الراهن، وعدّ خلو الساحة "من فقه مكتوب يعتمد عليه القضاة، سواء من خلال نظام التقنين أو السوابق، أمراً مشكلاً، إذ إن تعارض الأحكام يؤدي إلى إرباك، عناصر أساسية في القضاء ليس لها علاقة بما جرى إصلاحه، وفي كل الأحوال يجب أن يكون للقضاء رأي واحد وليس عدة آراء في القضايا المتشابهة".

وحول التعزير بالجلد ومدى إمكانية بحث بدائل ألطف منه يرى القاضي في المحكمة العامة في جدة حمد بن محمد الرزين أن "عقوبة الجلد على بشاعتها وإهانتها لمن وقعت عليه، لا تزال تؤدي دورها المنوط بها من ردع المجرمين والمعتدين على حرمات المعصومين، وهي لائقة بفعل المجرم الذي استهان بفعلته وأقدم عليها، بلا وازع من دين أو خلق، فهو من ألحق الأذى بنفسه (فيداه أوكتا وفوه نفخ)".

بدائل عن التعزيز بالجلد!

بيد أن الرزين استدرك بأن "الملاحظ مع التوسع في هذه العقوبة، طغيانها على عقوبات تعزيرية أخرى أرى من الأولى الأخذ بها، وإيقاعها على المجرمين، لا سيما وقد ورد لها أشباه في الشريعة، كالتعزير بالمال، تغريما وإتلافا، والهجر والحبس والتغريب، وغير ذلك مما قد يكون له أثر أبلغ في الردع".

وأضاف أن " هذا المطلب يكتسب أهمية زائدة مع ما نشهده من استئناس بعض المجرمين المتمرسين في الإجرام، مع عقوبة الجلد، فأصبحت أو كادت لا تحدث في نفوسهم أثرا"!

أما أستاذ الشريعة في جامعة الإمام محمد بن سعود الاسلامية سامي الماجد فإنه رفض وصف التعزير بالجلد بأنه عقوبة غير حضارية " طالما أن العقوبة بالجلد تشريع نزل به القرآن وصحيح السنة، وثابتة لا تتغير بتغير الزمان ولا بتغير المكان بإجماع علماء الأمة قديماً وحديثاً، ولا محل للاجتهاد في تقديرها، ولا يجوز أن توصف ـ سواء كانت حداً أو تعزيراً ـ بأنها طريقة غير حضارية، بل هي طريقة عادلة وعقوبة زاجرة، استوجبها شخص غير حضاري انتهك شيئاً من قيم الحضارة والرقي".

وتابع "وأما التعزير بالجلد في غير الحدود فمشروع باتفاق أهل العلم، لكن ليس بعقوبة متعينة؛ بحيث لا يجوز التعزير بغيره، فتقدير التعزير موكول إلى اجتهاد ولي الأمر أو نائبه وهو القاضي،

فإذا رأى القاضي أن التعزير بغير الجلد أجدى فله ذلك، ويسعه ألا يعزر بالجلد. وله كذلك أن يترك التعزير بالجلد إلى غيره إذا رآى للردع والزجر وسائل أبلغ أثراً، أو درءاً لمفسدة قد تُثار، أو حفاظاً على مصلحة مكتسبة، أو جلباً لمصلحة راجحة مطلوبة.على أن القاضي لو اختار التعزير بالجلد فلا تثريب عليه، ولا يجوز أن يوصف حكمه بالتعزير بالجلد بأنه قضاء غير حضاري؛ لأن للعقوبة بالجلد أصلاً في الشرع."

لكن الماجد على الرغم من ذلك انتهى إلى أن "تسويغ التعزير بالجلد لا يعني أن تقديره مطلق بلا ضابط ولا قيد، فالمحققون من أهل العلم ينصون على أن الجرائم التي في جنسها ما يوجب الحد لا يجوز أن يبلغ التعزير بالجلد فيها مبلغ الحد في جنسها؛ كمقدمات الزنا من التقبيل أو الخلوة، فلا يجوز أن يبلغ التعزير بالجلد على من وقعت منه مئة جلدة؛ لأن ذلك هو حد الزنا، ولا يجوز أن تكون مقدمات الزنا مساوية لجريمة الزنا في العقوبة. وكذلك الشتم والسب لا يجوز أن يكون الجلد عليهما مساوياً لحد القذف، وهو ثمانون جلدة، بل يجب أن يكون التعزير بالجلد في السب والشتم دون ذلك الحد.

وأما الجرائم التي ليس في جنسها ما يوجب الحد، فيجوز أن يعاقب فاعلها بما يردعه من العقوبات التعزيرية، سواء بالجلد أو الحبس أو غيرها".

ومن ناحيته لم يرفض الباحث الإسلامي نجيب اليماني مشروعية التعزير بالجلد في العصر الراهن، إلا أنه احتج بأحاديث تفيد حرمة مجاوزة عشرة أسواط في غير الحدود، وتساءل عن مشروعية مئات الجلدات التي يتردد توزيعها في المحاكم السعودية.

وقال "أخرج البخاري ومسلم عن هاني أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: "لا تجلدوا فوق عشرة أسواط إلا في حد من حدود الله". وقد أخذ بهذا الحديث أحمد والليث وإسحاق وجماعة من الشافعية، والتعزير لا يكون بالجلد دائماً كما هو حاصل اليوم بل أيضاً يكون بالتوبيخ والزجر والوعظ والحبس فعلى مر التاريخ لم نسمع بمثل ما نسمع به الآن من آلاف الجلدات فقد يحكم بالتعزير على شخص ما بثلاثة أو أربعة آلاف جلدة، وهو ما لم يفعله رسول الله ولا صحابته".

وأضاف: "جريمة الزنا وهي من الجرائم الكبيرة في حق الله وحق المجتمع، قدر الله لها مائة جلدة لا غير بنص القرآن، ولا أدري على أي أساس تم التوسع في الجلد لأدنى خطيئة وأقل معصية فهذا علي رضي الله عنه ضرب رجلاً وامرأة مائة جلدة، وجدهما في لحاف واحد."

وحول أسباب استمرار التعزير بالجلد وإمكانية إيجاد بدائل أمثل، يشير اليماني إلى أن " الفقهاء نصوا على أن التعزير يختلف باختلاف الأعصار والأمصار،فيجب أن يفرق بين أستاذ جامعي قال

كلمة على سبيل النقد وطلب الإصلاح، وبين مجرم متمرس على الإجرام أو معتدٍ على حقوق البلاد والعباد".

ودعا القضاة إلى الاختيار "من العقوبات ما يناسب الحال، فيجب على الذين لهم سلطة التعزير الاجتهاد في اختيار الأصلح باختلاف مراتب الناس وباختلاف المعاصي".

ويكاد المهتمون من القضاة الذين تحدثوا إلى "الحياة" يجمعون على معارضتهم التوسع في الجلد،بل اشترط أمين المجمع الفقهي الإسلامي الدكتور صالح المرزوقي لجواز الجلد حسب رأيه " أن تكون الحادثة ملائمة له، وأن تستنفذ الوسائل الأخرى، بحيث يلجأ إليه في أضيق الأحوال" وقال: إنه "يؤيد مبدأ التعزير بالجلد في العصر الراهن، لكنه لا يرى التوسع فيه مناسبا". لكن أحداً لم يدع إلى الاستغناء عن التعزير بالجلد نهائيا. فهل بالفعل ذلك مستحيل شرعاً؟!

"الأفكار الإرهابية" لا تتحول بالمواعظ

لم يسع حتى التقارير الأجنبية البعيدة عن واقع الأحداث في السعودية أن تتكر تراجع "الإرهاب" فكرياً وميدانياً في البلاد، بعد حرب ضروس معه، أخذت أبعاداً واتجاهات شتى.

وفي الجانب الديني الذي هو محور حديثنا، واجه المتدينون المنحرفين فكرياً باستخدام عقلية "الإرهابيين" الحركية نفسها. فعلى الساحة الدينية المحضة، على "المنابر" وفي "الدورات" و"الدروس العلمية الخاصة"، اجتهد المتدينون التقليديون في رد ما يظنونه شبهاً يتذرع بها الشبان المسلحون في الخروج على الإجماع الداخلي. وسجلت وزارة الشؤون الإسلامية إحصاء لجانب من هذا النشاط، وهو الذي تشرف عليه فتجاوز في عام واحد مليون موعظة وخطبة ودرس، لم تنقل وسائل الإعلام أكثرها.

غير أن هذا الاتجاه وإن كان في نظر القائمين به "أربك الإرهابيين بوصفه قلل من مؤيديهم بصورة واضحة" كما يقال، إلا أنه لا يمكن حصر نتائجه بأرقام مثل النشاط اللافت للنظر على "ساحة الإنترنت" و "ساحة الموقوفين" في السجون السعودية بتهم

متفاوتة، فضلاً عن "ساحة الإعلام" التي تصب فيها كل تلك التوجهات، الرامية إلى محاربة التطرف والغلو.

الهدف الذي تحاول الجهات المختلفة أن تلتقي عنده يمكن اختصاره في "التبليغ عن لابسي الأحزمة الناسفة، وعزل المفتين المشرعين، وتوعية المترددين والمحايدين، ومحاولة إقناع المؤيدين بخطأ ممارسات الغلاة". غير أن هذه الأهداف شتتها -نوعاً ما- هدف آخر طارئ وهو "تبادل التيار الليبرالي والإسلامي للتهم فيما بينهما" فالأول كثيراً ما يتهم الثاني بأنه شريك في الإرهاب، أحياناً صراحة وأخرى تلميحاً.

بينما اشتهر الإسلاميون خصوصاً بعد خفة وطأة الهجمات المسلحة بتكثيف الحملة ضد الليبراليين، ومحاولة إقناع صانع القرار بأن ممارساتهم هي الأخرى تمثل جانباً يحرض على "الإرهاب" كرد فعل من جانب "الشباب المتهورين"، ما منح المتطرفين فرصة لالتقاط بعض الأنفاس.

الدعاة التقليديون

بذل هؤلاء جهوداً تقليدية في مجملها توزعت ما بين المحاضرات والخطب والدروس والملتقيات، بطريقة وعظية، تعالج الموضوعات بشكل سطحي في أغلب الجوانب. وغالباً ما يدور هذا النوع من النشاط حول موضوعات:" الأمن، بوصفه عنصراً مهماً لتحكيم الشريعة في البلاد والرخاء" والشبهات التي يطلقها

التكفيريون مثل:"الولاء والبراء" و"إخراج المشركين من جزيرة العرب" و "قتل المعاهدين" و"الإفساد في الأرض". من بعد ديني بحت، لا يغوص كثيراً في الخلفيات السياسية.

ومع تقليدية هذه المواعظ إلا أنها يمكن أن يمتد أثرها إلى فئات أوسع من السعوديين لو أن وزارة الشؤون الإسلامية أنفقت "المال" الكافي على ذلك، لنشرها في وسائل الإعلام، إذ إن هذا النوع من المناشط بلغ من "الكثافة" حداً لا يمكن معه تخصيص الحجم اللائق به في وسائل الإعلام السعودية المختلفة، أو هكذا يحدث.

هذا على الرغم من أن الوزارة نفسها تمكنت من إصدار قرار من مجلس الأوقاف الأعلى يجيز لها الصرف على مناشط "مكافحة الإرهاب" من أموال "الأوقاف العامة"، بيد أن الوزارة تكتفي بإلقاء اللوم على وسائل الإعلام واتهامها بالتقصير في نقل جهودها على هذا الصعيد، وهو أمر ربما له بعض الوجاهة، بسبب أن معظم الصحف السعودية تنظر إلى هذا النوع من المناشط على أنه تقليدي ولا يستحق مساحات للنشر باستمرار.

وهل أثر اختلاف الوزارة مع بعض منسوبيها من الأئمة والخطباء خصوصاً بعد إعلانها لانتهاء الحرب الباردة معهم عقب ١١ سبتمبر، على الحرب الفكرية على الإرهاب؟ كثيرون يتحاشون الإجابة، إلا أن الواقع أن "الشؤون الإسلامية" رغم محاولاتها الجمع بين الترغيب والترهيب للخطباء والأئمة إلا أن سياساتها نحوهم "لا ترضي الغالبية منهم"!

ساحة الإنترنت

بعد أن فشل تنظيم القاعدة حتى الآن على الأقل في إقامة دولة أو إمارة خاصة به في العالم الإسلامي والعربي، اتجه إلى "الإنترنت" التي اتخذه الدولة العالمية التي يدير عبرها شبكاته، ويمرر عبرها رسائله للأتباع.

ولهذا يرى المراقبون أن "الإنترنت من دون مبالغة يؤدي عبره تنظيم القاعدة كل مهمات الدولة" ولهذا تهتم خلاياها بالقرصنة الإلكترونية أكثر من أي عنصر آخر في تشكيل عصاباتها. كما يقول المتخصص في الصحافة الإلكترونية الدكتور عمار بكار.

ولهذا كانت التفاتة "حملة السكينة" التي يشرف عليها وزير الشؤون الإسلامية ذكية في مواجهة جنود "دولة الإنترنت" في خلاياهم عبر "المنتديات" والمجموعات البريدية، وتمكنت من إقناع نحو ٢٠٠٠ منهم بالتراجع عن أفكارهم التكفيرية، وحاورت عشرات الآلاف منهم. وناظرت أعداداً أخرى في المنتديات الصوتية والتحريرية. كما يقول أحد دعاتها الشرسين الشيخ ماجد المرسال.

ولأن المرسال يحاور كل التكفيريين من الناحية الفكرية بغض النظر عن استهدافهم للسعودية أو العراق أو أي موطن في العالم إلا أنه لاحظ أن "سوق التطرف والإرهاب أكثر ما يروجه ويشعل ناره بين الشباب هو غزو البلدان الإسلامية أو شن غارات على مدن بعينها، ونشر الصور البشعة لمآسي المسلمين في تلك الآفاق".

وما يميز "حملة السكينة" عن نشاط الوعاظ التقليديين أنها "تحاور أناساً في شكل مباشر تسمع شبهاتهم وترد عليها، وتقنعهم بالحجة والدليل والعقل، وغالباً ما تكون المعاناة شديدة مع قليلي العلم الذين لا يملكون منهجاً يؤسسون عليه قناعاتهم أو أفكارهم التكفيرية".

هذا الواقع بحسب نشطاء حملة السكينة أمكنهم التغلب عليه بالاستفادة من أفكار الإرهابيين أنفسهم في تشكيل الخلايا المتخصصة في كل جانب، من المحاورة إلى استخدام المعرفات المتعددة، واستقطاب الكفاءات التي تحمي أجهزتهم من قراصنة القاعدة المذهلين.

تجربة السكينة التي تعد في بدايتها مبادرة من شباب سعوديين متدينين كشفت لهم أن المجتمع يفتقر إلى "ثقافة الحوار" حسب ما يقولون. "فليست القضية أن يختلف معي فلان أو يتفق، ولكن قضيتنا أن يقبل بمبدأ التحاور، على اعتبار هذا الأخير لا يكلفه طائلاً من المال ولا الجهد ولا يكشف معلوماته أيضاً، فنحن التزمنا السرية مع كل الذين تحاورنا معهم ولم نذع شيئاً من أسرارهم".

والخصوصية التي يمنحها الانترنت للمتحاورين من الفريقين جعلت نشطاء الحملة يتمنون "التوسيع في تجربة المنتديات الإلكترونية التي تمكن الناس من إعلان آرائهم مهما بلغت من الغلو

بحرية" معتبرين أنهم واثقون من القدرة على "الانتصار بالحجج النقلية والعقلية".

وشاع بين الصحافيين السعوديين نماذج من المتراجعين بفضل الحملة من النساء والرجال، وآخرين من القيادات التكفيرية الذين أصروا على تطرفهم مع محاولات الحملة، التي يميزها أنها "صامتة" وبأسماء لا يميزها "المستهدفون" عن غيرها.

الموقوفون في السجون

الحوار مع هذه الشريحة هو الآخر أثمر في إقناع ثمانين في المائة من الموقوفين على تضارب في تصريحات محاوريهم، لكن المهم أن زائري السجون من علماء النفس والفكر يجمعون على أن معظم الموقوفين يتراجعون مع محاورتهم، وإقناعهم بالدليل الشرعي والمنطقي والعقلي. وأعلن المتحدث باسم وزارة الداخلية أخيراً اللواء منصور التركي أن نحو ٥٠٠ من هؤلاء المتراجعين أطلق سراحهم.

ويعتقد عميد كلية الشريعة السابق الدكتور سعود الفنيسان أن تراجع الشبان الذين يتحاور معهم العلماء في السجون وفي الإنترنت عن أفكارهم "يعد مؤشراً على أن الخطأ كان من العلماء الذين إما أن يكونوا بعيدين عن الساحة، أو يتهربون من تساؤلات الشباب المحيرة، خصوصاً في الجوانب السياسية والعلاقات الدولية".

وأضاف: "المصطلحات الفقهية لدينا، التي تدرس وتوجد في الكتب التراثية المتداولة، التي تركز في خطابها ومصطلحاتها على مفهوم الدولة الإسلامية الكبرى، أفضت بأكثر شبابنا إلى الحيرة التي سهلت توظيفهم بشكل سلبي".

ويرى المراقبون أنه ليس شيئاً يمكن أن يعالج الإرهاب في زاويته الفكرية أفضل من "الحوار" المفتوح الخالي من "الخطوط الحمراء فمن لديه شبهة يعاقب عليها القانون لا بد أن يخفيها ومناقشته فيها تحتاج إلى حوار مكثف، لا تغني عنه محاضرة عامة أو خطبة عابرة". كما يقول عضو لجنة المناصحة الدكتور محمد بن يحيى النجيمي.

معالجة "الصحافة العربية" سطحية ونفعية!

ومن ناحية أخرى دان باحث في جامعة الأمير نايف للعلوم الأمنية في دراسة تقدم بها لنيل درجة الماجستير الصحافة العربية بالافتقار في تغطيتها لقضايا الإرهاب إلى استراتيجية واضحة ومتماسكة لوضع خطط لمعالجة قضايا الإرهاب، متهماً صحافييها بقلة الاحتراف والمهنية.

وأكد الباحث إسماعيل وصفي الآغا في دراسة تحليلية عن "معالجة الصحف العربية لظاهرة الإرهاب" أن غياب الاستراتيجية الواضحة الذي لاحظه أدى في النتيجة إلى "خلل في التصدي لموضوع الإرهاب" صحافياً.

وأشار في خلاصة عن أهم النتائج التي توصل إليها بعد تحليل أجراه على جمع من الصحف العربية (معظمها سعودية) إلى أن "الوظيفة الإخبارية طغت على جميع الوظائف الأخرى وخاصة الوظيفة التثقيفية، وأن تعامل الصحف مع الظاهرة أثبت أن معالجة الصحافة العربية للظاهرة غير قادرة على تقديم رسالة إعلامية قادرة على تكوين نسق معرفي وفكري وقيمي يؤدي إلى تكوين اتجاهات وترسيخ وعي، والدفع باتجاه سلوك معين".

ورأى الآغا تبعاً لذلك أن الصحف العربية اليومية المدروسة "أقل من مستوى المسؤولية مقابل التحديات العالمية لتشويه صورة العرب والمسلمين واقتصرت على الوصف ولم تقدم معالجة صحافية تحليلية للموضوع".

ومثل على جانب من أوجه القصور بزعم أن تلك الصحف "قليلاً ما تستعين بالعلماء والخبراء والاختصاصيين ومراكز الأبحاث كمصادر للمعلومات، وأدى ذلك إلى هيمنة الكادر الصحافي العادي، وإلى ضعف الاعتماد على الخبرة والاختصاص".

وفي الشق المهني انتقد الباحث الصحف العربية المبحوثة بقسوة واعتبرها غير مستفيدة تماماً "من وظيفة الصحافة المقروءة المتمثلة في مقدرتها على تقديم مادة غنية، ذات طابع تفسيري وتحليلي، يعتمد مفهوم السياق في التغطية الصحافية، وبدلاً من ذلك ما زالت الصحف العربية تركز اهتمامها على تقديم مادة إخبارية مفككة ومشتتة ومتسرعة، ومكررة في كثير من الأحيان"!

وإذا كان الباحث حمل على الصحف المبحوثة وانتقدها مهنياً، فإن رئيس شؤون الحرمين الشيخ صالح الحصين في لقاء أخير دشن فيه كتاباً سياسياً جديداً هو "ضحايا برئية في الحرب العالمية على الإرهاب"، رأى أن الإعلام المحلي "فضلاً عن فشله في الدفاع عن بلاده ومؤسساته الخيرية ساهم في الحرب الدائرة ضدها"!

دراسة: "العلمنة والأمركة" حلول فاشلة!

نبّه باحث سعودي من أن اقتلاع جذور الإرهاب في مجتمع مُتدين ومحافظ بطبيعته كالمجتمع السعودي لن يكون عبر "لبرلة" المجتمع، أو "علمنته"، أو "تغريبه"، أو "أمركته".

وشدد الدكتور يوسف العثيمين على أن دعاوى البعض بهذا الخصوص "لن تنجح" كما أنها في ظنه ستظل محرومة من "القبول الشعبي والتفاعل المجتمعي، ولن تحوز على رضا عقلاء المجتمع وساسته".

لكنه على الرغم من ذلك لم يرجع أسباب الإرهاب والتطرف إلى محاولات "العلمنة واللبرلة" التي أشار إليها وإنما رأى أسبابه محصورة في " خطاب دعوي ووعظي متشدد، اكتسح الساحة في قدرته على تقديم إجابات سريعة وساذجة ومُبسطة، وغير واقعية للمسائل الكبرى".

وأكد العثيمين الذي يشغل منصب أمين عام مؤسسة الملك عبد الله لوالديه للإسكان التنموي أن أي معالجة لهذا الواقع لن تنجح إذا ما تجاهلت دواعيه، أو تجاهلت الاعتراف بأن "أسبابه محلية".

وفي ما اعتبره العثيمين خاتمة الدراسة التي أصدرها أخيراً في ١٤١ صفحة تحت عنوان: "نحو استراتيجية وطنية شاملة لمكافحة الإرهاب في السعودية" أكد أن "المراقب للمشهد الداخلي في التعامل مع الإرهاب يلحظ أن الجهد العام يكاد يكون محصوراً في التعاطي الأمني، وهو فعّال وناجح ومُبهر... إلا أن فعاليته قصيرة المدى، فالاعتماد عليه وحده، وفي حال استمراره، قد يقود إلى فتنة داخلية، وردة فعل سيئة تجاه النظام والدولة، خاصة إذا وجدت شرائح من المجتمع أن أعداداً كبيرة من الأسر قد فقدت الابن والعائل والزوج والقريب، إما بالهرب والتخفي، أو بالسجن، أو بالقتل... كما أنه ليس من الإنصاف والعدل أن نضع عبء مكافحة الإرهاب على المؤسسات الأمنية وحدها، فالأمن وأدواته -عادة- هو الخيار الأخير، وليس الأول".

وأضاف أنه "مع التسليم بوجود جهود فكرية مصاحبة للجهد الأمني، الا أنها جهود تتسم - إلى حد كبير - بالسطحية والتقليدية، والعاطفية وضعف التأثير، وتتعامل مع أعراض المشكلة،وليس مع جذورها، وذلك عبر آليات (المحاورة) مع الإرهابيين، و(التوعية) مع المتعاطفين من سائر أفراد المجتمع.

فقد بدا واضحاً للمراقب المتخصص، أن الإرهابيين أكثر من القائمة المشار إليها، والقائمة تزداد وتتجدد، واتضح أن مكافحة الإرهاب في المملكة تتطلب ما هو أعمق من (المحاورة) مع الضّالين، وما هو أكثر من (التوعية) مع المتعاطفين، وبدا جليّاً - أيضاً - أن

الإرهاب (بخير) لأن جذوره ومناخاته (بخير)، ولم يُقض عليها بعد، فهي متمددة في الفكر والثقافة، وفي مؤسسات الدولة، وفي بنية المجتمع المحلية، وأن الإرهاب قوي وضعف، وظهر وكمن، تبعاً لظروف محلية وإقليمية ودولية، سيظل موجوداً".

الخطر الأهم من "القوائم"

ورأى "الخطر الحقيقي الذي يواجه الدولة، ويجب أن تتنبه له، وتوجه له كافة إستراتيجيتها، ليست قوائم الإرهابيين أو المطلوبين ومهما طالت، فهؤلاء مقدور على اقتناصهم، عاجلاً أم آجلاً... (الخطر الحقيقي) هو في تلك الدوائر المتداخلة من المتعاطفين، التي تعيش بيننا ومعنا، وتنقل فيروس الإرهاب في شرايينها، وتمد - باستمرار - المجتمع بالإرهابيين، وتساعدهم لوجستياً وعاطفياً، أو تقدم لهم الحماية والتمويل، ناهيك عن حرّية الحركة وشرعية التصرفات.

ويأتي خطر هذه الدوائر من أننا، على خلاف المجتمعات الأخرى، التي يظل الإرهاب فيها مهما اشتد وقوي، يظل محصوراً أعداد محدودة، وعلى هوامش المجتمع وحواشيه، يميناً ويساراً، وليس في وسطه... ومن هنا تأتي أهمية أن تُثار الأسئلة الكبرى التي تنفذ إلى العمق، وتُعيننا على التعرف على الأسباب والدوافع، والعوامل والمناخات، والظروف والمنابع، التي تُغذي الإرهاب داخل المجتمع السعودي. وتُعيد إنتاجه، وتُجدد خلاياه، وتنشره، وتروج له،

وتجعل الشاب البريء (إرهابياً)، والمواطن البسيط (متعاطفاً)، وهنا -تحديداً-، يجب أن ينصب الجهد، ومن هنا - أيضاً - تبدأ جهود المعالجة".

وأضاف: "لقد بات واضحاً أن هناك إطاراً فكرياً وأرضية اجتماعية مُهيئة، أعطت الإرهاب سهولة التجنيد، و"جاذبية" الحماس في عقول الشباب وقلوبهم، و"تعاطفية" القبول في نفوس شرائح واسعة من المجتمع السعودي، بدرجات مختلفة، وهنا، مكمن الخطر، وبيت الداء، وفي الوقت نفسه، مصل الدواء".

وعلى الرغم من تردد الكثيرين في الجزم بالسبب الرئيس وراء الإرهاب إلا أن العثيمين أردف قائلا: "في المجتمع السعودي، لا يجد الباحث الاجتماعي صعوبة في الجزم، بثقة علمية، بأن ذلك الضخ المتواصل والمركز المنبعث من الخطاب الدعوي المتشدد، الذي سيطر على بعض وسائل الاتصال الجماهيري، وعلى ساحة المجتمع وبعض مؤسساته الدينية والتعليمية والتربوية والإعلامية، ردحاً من الزمن، واتسم بالتشدد والتعبوية والنصية والأحادية والفوقية والإقصائية وكره المخالف، ووجه رسائله النارية المغرية لبعض شرائح المجتمع، (لا بد)، بسبب ذلك (الضخ المتواصل) أن يجد الإرهاب، بشتى أنواعه الفكرية والحركية لنفسه (تعبيراً) في زمان مُعين، وفي مكان مُعين، وفي شخص مُعين، وفي ظرف معين... أما الطرق على العوامل النفسية (الإحباط)، أو السياسة (الديموقراطية)، أو سوء الأحوال المعيشية (الفقر)، التي يُقال إنها

تولّد الإرهاب، فهذه مجرد تفاصيل، أو مُغريات، أو مُحفزّات، ليس إلا... خاصة في المجتمع السعودي".

ولكي ينجح السعوديون في معالجة الإرهاب قال "لا بد أولاً من الاعتراف بأن الإرهاب مشكلة داخلية، وأن الذي أوصلنا إلى ما وصلنا إليه هو ذلك الخطاب الدعوي الوعظي المتشدد، الذي اكتسح الساحة في قدرته على تقديم إجابات سريعة وساذجة ومُبسطة، وغير واقعية للمسائل الكبرى، التي تعترض حياة السعودي البسيط، مما أكسبه جماهيرية وجاذبية وشعبية بين مختلف الأوساط، في ظل غياب الخطاب الديني التقليدي الذي حصر نفسه في مسائل الحلال والحرام، مما أفقده شعبيته وتأثيره، وقدرته التوجيهية والتنويرية على الشباب، وتوارى بعيداً عن الأنظار.

وإذا كان المجتمع السعودي يُوصف بأنه مجتمع مُتدين ومحافظ بطبيعته، وهذا صحيح، فإن اقتلاع جذور الإرهاب فيه لن يكون عبر "لبرلة" المجتمع، أو "علمنته"، أو "تغريبه"، أو "أمركته"، كما يدعو البعض، فهذا الطرح لن ينجح، ولن يجد القبول الشعبي والتفاعل المجتمعي، ولن يحوز على رضا عقلاء المجتمع وساسته".

وأشار إلى إن المعالجة ممكنة ولكن "عبر الخروج بإستراتيجية وطنية شاملة، تقوم على مسارين متوازيين، المسار الأول، تجديد الخطاب الديني نفسه، والسعي إلى إظهار خطاب ديني متسامح مستنير، وتصالحي مع النفس ومع الآخر، في الداخل والخارج...

خطاب واقعي هادئ، يُقدم توصيفاً جذاباً وراشداً لموقع الإنسان السعودي في الكون والحياة، ويستجيب للمسائل الكبرى التي تُواجه وتُقلق (سعودي القرن الواحد والعشرين)، الذي يعيش في قرية كونية، مع أهمية أن يكون ذلك عبر عمل مؤسسي، ينتج هذا الخطاب ويراقبه ويصونه، ويُحافظ على وسطيته، ويضمن استمراريته، ويحمي مُعتنقيه والمُدافعين عنه".

والمسار الثاني، هندسة المجتمع هندسة شاملة... هندسة تتناول عدداً من المجالات الحيوية ذات المساس بالشأن العام، وفي أدوار الدولة ووظائفها وخدماتها، وفي بُنية المجتمع ومؤسساته، من أجل (إضعاف جاذبية) الأيدلوجيا المتشددة التي (لحست)، ونخرت في عقول الصغار وقلوبهم ووجداناتهم، وتشبعت بها نفوس المتعاطفين من الكبار".

مرجعية تحاسب!

وحذر العثيمين من أن يفرق دم مسؤولية معالجة الإرهاب "بين القبائل" والجهات، " فلكي تنجح جهود المملكة في مكافحة الإرهاب عبر هذه الإستراتيجية، فلا بد – أيضاً – من مرجعية مُوحدة لهذه الإستراتيجية في الدولة، يكون ليدها هذا "الملف"... مرجعية تكون من مهماتها أن تدرس، وتتابع، وتجمع المعلومات، وتقدم الدراسات والأبحاث، وتقيم الجهود، وتمد ولاة الأمر بتقارير دورية على مدى تقدم جهود المعالجة، والعقبات والمعوقات، إن وجدت، بأسلوب علمي واحترافي". والباحث العثيمين إضافة إلى كل ما سبق أكد أن

الفرصة المواتية في بلاده اليوم تتجاوز كبح جماح رجال تنظيم القاعدة والمتعاطفين معهم إلى إحداث تغيير نوعي شامل في مفاصل البنيان الاجتماعي السعودي.

وقال: "أمام الدولة، الآن، فرصة تاريخية ذهبية قد لا تتكرر في أي مفصل تاريخي من تاريخ تطور المملكة السياسي والاجتماعي، ليس فقط لكسر عظم الإرهاب والتشدد والتزمت والانغلاق... ولكن لإحداث تغيرات نوعية واسعة في هيكلية الدولة ومؤسساتها وآليات عملها، وإصلاح شامل في بنية المجتمع السعودي وثقافته، وفي مؤسساته الدينية والرسمية والخيرية والأهلية، وفي مجالات وقضايا ما زال بعضها يُعد من "المحرمات" الدينية والاجتماعية والسياسية والإدارية مثل: تحديث بعض مؤسسات الدولة وإعادة هيكلتها، الشفافية في الشأن العام، المشاركة الشعبية، حقوق الإنسان، حقوق الأقليات، قنوات التعبير والحوار، الحريات العامة، قضايا المرأة، العنف الأسري، الانتخابات، الآثار، الآخر، الخصوصية، والهوية، وغيره كثير".

وعزا ذلك بأن "الجو العام مهيأ، داخلياً وخارجياً، لتقبل مشروعات الدولة الإصلاحية في هذه المجالات، وعلى الدولة ألاّ تُفوّت هذه الفرصة التاريخية... ولكن ذلك لن يتم إلا بقليل من البلاغية، وكثير من الهندسة الاجتماعية، والكثير الكثير من الإرادة السياسية... الإشارات تُوحي بالتفاؤل".

مؤسسة الحرمين... الإقلاع حتى السقوط

أعلن أخيراً حل "مؤسسة الحرمين الخيرية " بشكل كامل في الداخل والخارج، بعد آمال باقتصار حلها على الخارج وحده.

وكانت استقالة مدير مؤسسة الحرمين الخيرية الشيخ/ دباس بن محمد الدباسي ترجمت أجواء الترقب والحذر التي سيطرت على المنظمة منذ إعلان السلطات السعودية يونيو ٢٠٠٣ عزمها على حلها في مؤتمر صحفي مشترك بين مسؤول سعودي وأمريكي، أعلن الطرف الأمريكي فيه ضم مدير المؤسسة السابق عقيل العقيل إلى قائمة ممولي الإرهاب.

ورغم اختلاف الشخصيات القيادية بالمؤسسة حول توقيت الحل الكامل إلا أن الغالبية ترى ضرورة استمرار العمل حتى إبلاغ المؤسسة رسميا بالقرار، مع ما يصاحب ذلك من شعور بتضاؤل أمل عودة العافية إلى المؤسسة بعد مضي ستة أشهر على تجميد حساباتها.

وفي زيارة لمقر الإدارة العامة وسط الرياض لا تبدو الحياة طبيعية كما هي من قبل، وبات القلق هو السمة الغالبة على كل من

تقابله في أروقة المؤسسة التي أشبه ما تكون بالأطلال، إذا ما تذكرالمتجول فيها صورتها التي ولّت ربما إلى غير رجعة.

الصندوق الذي كان أول ما يستقبلك بأبوابه المشرعة في البهو العام أمام المتبرعين أشبه ما يكون بالمهجور، إلى لجان المؤسسة المقسمة جغرافيا، (آسيا وإفريقيا وأوروبا) والإدارات المساندة لها، التي أصبحت هي الأخرى شيئا من أحاديث الماضي بعد أن هوت واحدة تلو الأخرى، ولم يبق سوى أفراد من الموظفين لتصفية أعمالها بعد أن تركت العمل في كل من أوروبا وإفريقيا وآسيا.

الموظفون الذين يتجاوزون (٥٠٠٠) موظف من بينهم (٢٥٠) تقريبا في مقر الإدارة العامة، لم يعودوا يشكلون رقما يذكر، والغالبية منهم من ذوي الوظائف الحكومية المتطوعين بفضل أوقاتهم فترة المساء.

بعض من قابلتهم (الحياة) من هؤلاء لم يكونوا على ثقة أن الحديث عن معاناتهم سيجدي نفعاً، لذلك كما يقول أحدهم " لا داعي لضياع الوقت، لقد تعودنا على الاتهامات الأمريكية للمؤسسة،ونحن واثقون أنها بريئة " لكن همساتهم فيما بينهم تشير إلى أنهم لم يعودا يشعرون بالأمان بطبيعة الحال!

مدير عام المؤسسة دباس الدباسي المستقيل أكد في تصريحات سابقة أن المنظمة " تخلت عن العمل في الخارج وأغلقت

حتى الآن ١٤مكتبا، وماضية في إغلاق البقية، بهدف التركيز على داخل المملكة " موضحا أنه لم يتلق " تعليمات تفيد حل المؤسسة " ربما كان نبأ استقالته الذي أعلن ليس سوى مناورة أمل منها "أن تعود بالنفع على المؤسسة" لتذكير الرأي العام بقضيتها.

خارج المؤسسة سألنا الموظف عبد العزيز (٢٧) عاما الذي أمضى في المؤسسة (٥) سنين ما إذا كان يعتقد أن الاتهامات الأمريكية ضد الحرمين تكتسب مصداقية بين أوساط زملائه ؛ فأجاب: " الولايات المتحدة تقول نحن سيئون، ونحن نقول إننا رائعون. حسنا... فلتحكم بيننا الأدلة ".

لم يكن يهم عبد العزيز بقاء مكاتب الحرمين في الخارج كثيرا.. بعد الاتهامات التي رآها مغرضة لكنه أضاف " أغلقوا قبل شهر خمسة فروع هي في هولندا وألبانيا وأفغانستان وبنغلاديش وأثيوبيا لا بأس فليحكموا عليها الأقفال وليقولوا لنا ما هي المنظمات الإرهابية التي دفعنا لها الثروات، والشخصيات التي مولناها لتنفيذ عمليات انتحارية "

وزاد "الأميركيون لا يريدون أن نكفل (٧٠٠٠) يتيم نعلمهم القرآن، والصلاة والصيام، إنهم يريدون أن ندرسهم التوراة والإنجيل".

متطوعون.. ومذنبون!!

ويقول أبو فهد (٣٥) عاما "أي شيء يمس المؤسسة هنا، لاشك أنه سيكون مسيئا للجميع. ليس سهلا أن تقنع أشخاصا أفنوا

أوقاتهم وأموالهم في فعل الخير بأنهم كانوا في واقع الأمر مذنبين!!

مؤسسة الحرمين الخيرية التي أصبحت واحدة من أشهر المؤسسات الخيرية على الساحة السعودية رغم أنها لا تملك تصريحا للعمل في السعودية حتى هذه اللحظة استطاعت توطيد هامش علاقات واسع مع رجال المال والأعمال في المجتمع السعودي، وتجمع سنويا من بين ٤٥- ٥٥ مليون دولار.

ويرى المراقبون لتحولات النشاط الخيري أن المؤسسة استطاعت أن تكسب ثقة التيار السلفي بسبب منهجها في تقديم المساعدات، إذ لم تكن تقتصر على تقديم الطعام والكساء للمتضررين وحسب، ولكنها تضيف إلى ذلك التبشير بالمذهب السلفي في المناطق التي تعمل بها.

ملاحظات متداولة

ومع اتفاق الغالبية من المحللين على أن استهداف أمريكا للمؤسسات الإسلامية دون ذنب بعد أحداث ١١ سبتمبر بات واضحا إلا أنهم لم يكونوا يتفقون مع مؤسسة الحرمين الخيرية في كثير من خططها واستراتيجياتها.

فقبل بضعة أشهر من إقالة مديرها السابق عقيل العقيل كان ثلاثة من رموزها قدموا استقالتهم احتجاجا ضد بعض سياسات المؤسسة في استثمار التبرعات، وبعض التجاوزات التي رأوا أنها مخالفة للخط المرسوم للمنظمة.

وتعود قصة إنشاء مؤسسة الحرمين الخيرية إلى عام ١٩٨٨م في كراتشي ـ كما يروي عقيل العقيل مؤسسها ـ قائلاً: "عندما زارني الشيخ محمد ظفر الله خان مدير ومؤسس جامعة أبو ظبي في كراتشي تباحثت معه في إنشاء مؤسسة ترعى الأعمال الدعوية التي أشرفت على إقامتها في المنطقة بعد رحيلي عن باكستان، إذ كانت كل المدة التي تقرر أن أبقاها هنالك (٤) سنوات ".

ويكمل " أخبرني خان بأن افتتاح مؤسسة خيرية أمر في غاية السهولة من الناحية الرسمية في باكستان آن ذاك فاتفقنا على إنشاء مؤسسة وسميناها (الحرمين) وتم تسجيلها رسميا في كراتشي ".

وهناك ولدت مؤسسة الحرمين وفتح أول مكتب لها إلى أن عاد العقيل راجعا إلى السعودية بعد انتهاء فترة عمله في كويتا في إقليم كراتشي ناقلا معه المكتب الرئيس لمؤسسته، حيث استطاع حشد تأييد شعبي واسع لأنشطتها، وساعده في ذلك التزامها المنهج السلفي الذي يلقى رواجا واسعاً في المجتمع السعودي ولا يزال، بالإضافة إلى تتابع الكوارث في أنحاء شتى من العالم الإسلامي ؛ نهضت منظمته بدور كبير في إغاثتها في بنغلاديش فالبوسنة والهرسك ثم الصومال والشيشان.

ويحاول البعض إيجاد ربط بين "الظرف الزمني والمكاني" لنشأة مؤسسة الحرمين وبين عدم حماس الحكومة السعودية لها، إذ لم تمنحها إلى هذه اللحظة تصريحاً.

بينما يرى آخرون أن ذلك يعود إلى علامات الاستفهام التي أثارها المنهج الدعوي والتعليمي الذي تمارسه المؤسسة بصورة مشابهة لتلك التي تسلكها المؤسسات التنصيرية في اتخاذ الإغاثة وسيلة للضغط على "المستفيدين" من أجل اعتناق الدعوة السلفية التي تدعو هذه المؤسسة الناس في كل أنحاء العالم إليها، الأمر الذي أثار "غيظ" الحكومة الأميركية.. ما دعاها إلى محاولة التضييق على المؤسسة بشتى الوسائل، ومنها الضغط على الحكومة السعودية للتعامل معها بصورة منفردة عن باقي المؤسسات الأخرى.

ويشير تقرير الكونجرس الذي تناول المؤسسة باستفاضة إلى أن الحكومة السعودية كانت تتجاهل مطالبات الحكومة الأميركية ومطالباتها بالحد من نشاط مؤسسة الحرمين حتى قدم الأميركيون معلومات استخباراتية موثقة تثبت تورط المؤسسة في أنشطة غير مصرح بها. حسب تقرير الكونجرس.

العمل المسلّح

وهناك رواية ثالثة ترى أن المؤسسة بالفعل كانت ضالعة في دعم حركات مسلحة إسلامية، كالمقاتلين الشيشانيين والكشميريين فضلا عن الأفغان من قبل، لكن المؤسسة تنفي ذلك إطلاقا، رغم ثبوت أن الكثيرين من السعوديين والمقيمين دفعوا تبرعاتهم لها بهدف مساندة المجاهدين في أفغانستان والبوسنة والشيشان، إلا أن المسؤولين دائما يعتذرون بأن تلك المساعدات ذهبت إلى برامج

إغاثية وتوعوية. وأيا كان فتلك الحركات قبل أحداث ١١ سبتمبر كان ينظر إليها على أنها حركات مقاومة ونضال مشروعة.

ومع إثارة " مؤسسة الحرمين " للجدل إلا أن الذي بات شبه متفق عليه بين الأوساط الشعبية والرسمية أنه " لا أحد يريد أن تخسر الساحة السعودية مؤسسة أصبحت ذات تجربة مميزة في مجالها كمؤسسة الحرمين "، وبذات القدر يتفق الجميع أيضا على أن " الأموال التي يتبرع بها المحسنون يجب أن يتعامل مع صرفها بشفافية تامة ".

وباستمرار يكون رد فعل المنظمة وغيرها من المؤسسات السعودية أن " لا شيء لديها تخفيه.. وأبوابها مفتحة لكل من أراد معرفة الحقيقة ".

مرحلة الانتشار

وما بين نقل المكتب الرئيس لمؤسسة الحرمين إلى الرياض إلى أحداث ١١ سبتمبر تمكنت الحرمين من تحقيق انتشار واسع في إفريقيا وآسيا وأمريكا وأوروبا. وخاصة في الدول العربية التي يحظر فيها أي نشاط لها، مثل: (دول الخليج لبنان الأردن سوريا المغرب) لكنها تسللت إليها عبر جمعيات محلية تدعم برامجها وفق شروطها الخاصة. وبعد أحداث أيلول بدأت أصابع الاتهام تشير إليها، فاقتحمت قوات حفظ السلام في ألبانيا مكتبها هنالك بعد تفجيرات مانهاتن بأقل من أسبوع.

وبعد مضي نحو من عام على المضايقات ضد المؤسسات العربية في البوسنة جمدت الحكومة المحلية حينها نشاط مكاتب الحرمين قبل أن يعلن وزير الخزانة الأمريكي في خطوة مشتركة مع وزير الداخلية السعودي تجميد نشاط مكتبي المؤسسة في البوسنة والصومال.

تتابعت بذلك التطورات فأقصت السلطات السعودية مدير المؤسسة ومؤسسها عقيل العقيل عن منصب المدير العام، وكلفت دباس الدباسي خلفا له.

وأعلن عادل الجبير مستشار ولي العهد للشؤون الخارجية في يناير الماضي تجميد أنشطة أربعة فروع لمؤسسة الحرمين في إندونيسيا وكينيا وباكستان وتنزانيا.

تلا ذلك اقتحام مكتب المؤسسة في أمريكا وتجميد نشاطه، إلى أن قررت حكومة المملكة وضع حد ـ فيما يبدوا ـ يقضي بحل مؤسسة الحرمين الخيرية كما أعلن الجبير في مؤتمر صحفي الأربعاء الماضي جمعه مع مسؤول مكافحة الإرهاب بالخارجية الأميركية كوفر بلاك في مقر السفارة السعودية بواشنطن وأعلن حظر نشاط خمسة فروع إضافية لمؤسسة الحرمين، بسبب ما وصفته أمريكا بالدعم المالي واللوجستي الذي قدمته للقاعدة ومنظمات أخرى.

كما وضعت الولايات المتحدة اسم عقيل العقيل، الرئيس السابق لمؤسسة الحرمين، ضمن لائحة ممولي الإرهاب ويترتب على

ذلك وقف كل معاملاته المالية وتجميد أصوله ويطالب هذا الإدراج جميع دول العالم باتخاذ إجراءات مشابهة ضده.

والذي أبلغ (الحياة) في ذلك الوقت عزمه على تفنيد التهم الموجهة إليه وإثبات " أنها غير صحيحة، فقد أمضيت ربع قرن من حياتي في مساعدة الفقراء والأيتام والأرامل والمساكين، وكافة أنماط المساعدة الإنسانية للمتضررين، ولذلك فإنني أعتبر تلك التهم باطلة " مؤكدا أنه سيتجه " إلى القضاء الأمريكي لرفع دعوى ضد قرار اتهامي بتمويل الإرهاب، وسأعين محاميا يدافع عني هنالك على الفور ".

وينحدر عقيل العقيل مؤسس (مؤسسة الحرمين الخيرية) من أسرة سعودية عريقة من (عقيلات القصيم) (وسط السعودية) اشتهرت بالتجارة والعلم، ويعد شقيقه عبدالله العقيل من أبرز علماء السعودية الكبار، وكان رئيس مجلس القضاء الأعلى.

وتلقى عقيل دراسته الجامعية في كلية الشريعة بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض، وكان الثاني على دفعته.

وسئل في حوار مع صحيفة محلية قبل عامين، عن أول بداية اهتمامه بالعمل الإغاثي الخيري فأوضح أن البداية كانت لقاؤه مع أفراد من " جماعة التبليغ " الذين أعجب بطريقتهم في الدعوة إلى الله، فانخرط في سلكهم حتى تخلى عنهم بعد أن شغلته همومه

اليومية، حيث يعمل مدرسا في المرحلة الثانوية، و يشغل إلى جانب ذلك وظيفة إمام وخطيب جامع في (حي العليا) وسط مدينة الرياض.

كما ينحدر دباس بن محمد الدباسي ـ الذي استقال من مهام مدير عام المؤسسة مؤخرا ـ هو الآخر من منطقة القصيم، وحاصل على الماجستير من جامعة الأمير نايف العربية للعلوم الأمنية، وعمل متطوعا بمؤسسة الحرمين بعد إنشائها بخمس سنين تقريبا، إلا أنه سريعا ما تقلد مناصب كبيرة فيها مع ما شهدته علاقاته مع المدير الذي قبله من توتر بسبب اختلافهما حول بعض طرق صرف أموال التبرعات، كما تقول مصادر مطلعة.

وقد خلف دباس الدباسي في إدارة مؤسسة الحرمين حجاج العريني الذي كان ضابطا برتبة (مقدم) في الجيش السعودي بعد أن قدم الأول استقالته للمشرف على المؤسسة الشيخ صالح بن عبدالعزيز آل الشيخ وزير الشؤون الإسلامية السعودي، والذي كلف حجاج بإدارة المؤسسة.

يذكر أن مؤسسة الحرمين التي قررت السلطات السعودية حلها ترتكز أعمالها على التعليم والدعوة إلى الله. ومن شق آخر على إغاثة المسلمين عند حلول الكوارث، وكفالة الأيتام.

ووفق تقارير صادرة عنها قبل عام (من إعداد التقرير)، أنفقت أكثر من مليار ريال سعودي على تلك المجالات والأنشطة.

لعبت الحرمين دورا بارزا كما تفيد التقارير في مساعدة الشعب الفلسطيني. وكذلك الفقراء داخل المملكة. وأعلنت أنها أنفقت في العام الماضي الذي سبق إغلاقها، أكثر من ١٠٠ مليون ريال على بناء المساجد، وأنشطة اجتماعية وإغاثية ودعوية أخرى.

الإحالات

١- تفسير القرآن العظيم ، لا بن كثير. ص ٣٦٢

٢- روضه المحبين، ص ٢١٤

٣- إشارة إلى الآية الكريمة من سورة الذاريات (ففروا إلى الله إني لكم منه نذير مبين) آية رقم ٥٠

٤- جريدة الشرق الأوسط. عدد ٨٩٩٠